فأرسل إلى أبي الهيجاء يطلب ابن كسيرات فأطلقه وسيّره إليه فاطلق جاولي ابن ي الهيجاء فلما حضر ابن كسيرات عند جاولي ضمن له فتح الموصل وبلاد جكرمش وتحصيل الأموال فاعتقله اعتقالاً جميلاً وكان قاضي الموصل أبو القاسم بن ودعان عدواً لأبي طالب فأرسل إلى جاولي يقول له : إن قتلت أبا طالب سلمت الموصل إليك فقتله وأرسل رأسه إليه فاطهر الشماتة به وأخذ كثيراً من أمواله وودائعه فسار به الأتراك غضباً لأبي طالب ولتفرده بما أخذ من أمواله فقتلوه ، وكان بينهما شهر واحد ، وقد رأينا كثيراً وسمعنا ما لا تحصيه من قرب وفاة أحد المتعاديين بعد صاحبه .

ذكر الحرب بين ملك القسطنطينية والفرنج

في هذه السنة كانت وحشة مستحكمة بين ملك الروم صاحب القسطنطينية وبين بيمند الفرنجي ، فسار بيمند إلى بلد ملك الروم ونهبه وعزم على قصده فأرسل ملك الروم إلى الملك قلج أرسلان بن سليمان صاحب قونية وأقصرا وغيرهما من تلك البلاد يستنجده فأمده بجمع من عسكره فقوي بهم ، وتوجه إلى بيمند فالتقوا وتصافوا واقتتلوا وصبر الفرنج بشجاعتهم وصبر الروم ومن معهم لكثرتهم ، ودامت الحرب ثم أجلت الوقعةُ عن هزيمة الفرنج وأتى القتل علىَ أكثرهم وأسر كثير منهم والذين سلموا عالوا إلى بلادهم بالشام ، وعاد عسكر قلج أرسلان إلى بلادهم عازمين على المسير إلى صاحبهم بديار الجزيرة فاتاهم خبر قتله على ما نذكره إن شاء الله تعالى فتركوا الحركة وأقاموا .

ذكر ملك قلج أرسلان الموصل

قد ذكرنا أن أصحاب جكرمش كتبوا إلى الأمير صدقة وقسيم الدولة البرسقي والملك قلج أرسلان بن سليمان

بن قتلمش السلجوفي صاحب بلاد الروم يستدعون كلًا منهم إليهم ليسلموا البلد إليه . فأما صدقة فامتنع ورأى طاعة السلطان ،،وأما قلج أرسلان فإنه سار في عساكره فلما سمع جاولي سقاوو بوصوله إلى نصيبين رحل عن الموصل . وأما البرسقي فإنه كان شحنة بغداد فسار منها إلى الموصل فوصلها بعد رحيل جاولي عنها بالجانب الشرقي ، فلم يلتفت أحد إليه ولا أرسلوا إليه كلمة واحدة . ، فعاد في باقي يومه . ثم إن قلج أرسلان لما وصل إلى نصيبين أقام بها حتى كثر جمعه

فلما سمع جاولي بقربه رحل من الموصل إلى سنجار وأودع رحله بها واتصل به الأمير أيلغازي بن أرْتق وجماعة من عسكر جكرمش فصار معه أربعة آلاف فارس ، فاتاه كتاب الملك رضوان يستدعيه إلى الشام ويقول له إن الفرنج قد عجز من بالشام عن منعهم فسار إلى الرحبة وأرسل أهل الموصل وعسكر جكرمش إلى قلج أرسلان وهو بنصيبين استحلفوه لهم ، فحلف واستحلفهم على الطاعة له والمناصحة ، وسار معهم إلى الموصل فملكها في الخامس والعشرين من رجب ونزل بالمعروفة وخرج إليه ولد جكرمش وأصحابه فخلع عليهم وجلس على التخت وأسقط السلطان محمداً وخطب لنفسه بعد الخليفة وأحسن إلى العسكر وأخذ القلعة من غرغلي مملوك جكرمش وجعل له فيها دزداراً ورفع الرسوم المحدثة في الظلم وعدل في الناس وتألفهم وقال : من سعى إليّ بأحد قتلته فلم يسعَ أحد بأحد ، وأقر القاضي أبا محمد عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري على القضاء بالموصل وجعل الرياسة لأبي البركات محمد بن محمد بن خميس ، وهو ولد شيخنا أبي الربيع سليمان . وكان في جملة قلج أرسلان الأمير إبراهيم بن ينال التركماني صاحب آمد ومحمد بن جبق التركماني صاحب حصن زياد وهو خرتبرت . فأما إبراهيم بن ينال فكان سبب ملكه لمدينة آمد أن تاج الدولة تتش حين ملك ديار بكر سلّمها إليه فبقيت بيده . وأما محمد بن جبق فكان سبب ملكه لحصن زياد أن هذا الحصن كان بيد الفلادروس الرومي ترجمان ملك الروم ، وكانت الرها وأنطاكية من أعماله فلما ملك سليمان بن قتلمش والد هذا قلج أرسلان أنطاكية وملك فخر الدولة بن جهير ديار بكر ضعف الفلادروس عن إقامة ما يحتاج إليه حصن زياد من الميرة والإقامة فأخذه جبق وأسلم الفلادروس على يد السلطان ملكشاه وأقره على الرها فلم يزل عليها

حتى مات وأخذها الأمير بزان بعده . وكان بالقرب من حصن زياد حصن آخر بيد إنسان من الروم اسمه إفرنجي وكان يقطع الطريق ويكثر قتل المسلمين فأرسل اليه جبق هدية وخطب إليه مودته وأن يعين كل واحد منهما صاحبه فأجابه إلى ذلك فكان جبق يعين إفرنجيِ على قطع الطريق وغيره وكذلك إفرنجي يعين جبق فلما وثق كل واحد بصاحبه أرسل إليه جبق إني أريد قصد بعض الأماكن وطلب أن يرسل إليه أصحابه فأرسلهم إليه فلما ساروا معه في الطريق تقدم يكتفهم وحملهم إلي قلعة إفرنجي وقال لأهليهم : والله لئن لم تسلموا إلف إفرنجي لأضربن أعناقهم ولآخذن الحصن عنوة ولأقتلنكم على دم واحد ، ففتحوا له الحصن وسلموا إليه إفرنجي فسلخه

وأخذ أمواله وسلاحه ، وكان عظيماً ومات جبق فولي بعده ابنه محمد .

ذكر قتل قلج أرسلان وملك جاولي الموصل

قد ذكرنا أن قلج أرسلان لما وصل إلى نصيبين سار جاولي عن الموصل إلى سنجار ثم إلى الرحبة ، فوصلها في رجب وحصرها إلى الرابع والعشرين من شهر رمضان . وكان صاحبها حينئذ يعرف بمحمد بن السباق وهو من بني شيبان رتبه بها الملك دقاق لما فتحها وأخذ ولده رهينة وحمله معه إلى دمشق ، فلما توفي أرسل هذا الشيباني قوماً سرقوا ولده وحملوه إليه ، فلما وصل إليه خلع الطاعة للدمشقيين وخطب في بعض الأوقات لقلج أرسلان فلما وصل إليها جاولي وحصرها أرسل إلى الملك رضوان يعرفه أنه على الاجتماع به ومساعدته على من يحاربه ويشرط عليه أنه إذا تسلم البلاد سار معه ليكشف الفرنج عن بلاده ، فلما استقرت القاعدة بينهما حضر عنده رضوان فاشتد الحصار على أهل البلد وضاقت عليهم الأمور ، واتفق جماعة كانوا بأحد الأبراج وأرسلوا إلى جاولي واستحلفوه على حفظهم وحراستهم ، وأمروه أن يقصد البرج الذي هم فيه عند انتصاف الليل ففعل ذلك فرفع من فيِ البرج أصحابه إليهم في الحبال فضربوا بوقاتهم وطبولهم فخذل من في البلد ودخله أصحاب جاولي في اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان ونهبوه إلى الظهر ثم أمر برفع النهب ونزل إليه محمد الشيباني صاحب البلد وأطاعه وصار معه . ثم إن قلج أرسلان لما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جاولي سقاوو ليحاربه وجعل ابنه ملكشاه في دار الِإمارة وعمره إحدى عشرة سنة ومعه أمير ايدبر وجماعة من العسكر وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدة الكاملة والخيل الجيدة ، وسمع العسكر بقوة جاولي فاختلفوا ، وكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال

صاحب آمد فإنه فارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور إلى بلده ، وكذلك غيره . وعمل قلج أرسلان على المطاولة لما بلغه من قوّة جاولي وكثرة جموعه ، وأرسل إلى بلاده يطلب عساكره لأنها كانت ملك الروم نجدة له عن قتال الفرنج كما ذكرناه فلما وصل إلى الخابور بلغت عدته خمسة آلاف ، وكان مع جاولي أربعة آلاف من جملتهم الملك رضوان وجماعة من عسكره إلا أن شجعانه أكثر ، واغتنم جاولي قلة عسكر قلج أرسلان فقاتله قبل وصول عساكره إليه فالتقوا في العشرين من ذي القعدة ، فحمل قلج أرسلان على القوم بنفسه حتى خالطهم فضرب يد صاحب

العلم فأبانها ،ووصل إلى جاولي بنفسه فضربه بالسيف فقطع الكزاغند ولم يصل إلى بدنه وحمل أصحاب جاولي على أصحابه فهزموهم واستباحوا نقلهم وسوادهم ، قلما رأى قلج أرسلان انهزام عسكره علم أنه إن أسر فعل به فعل من لم يترك للصلح موضعاً لا سيما وقد نازع السلطان في بلاده واسم السلطنة ، فالقى نفسه في الخابور وحمى نفسه من أصحاب جاولي بالنشاب فانحدر به الفرس إلى ماء عميق فنرق وظهر بعد أيام فدفن بالشمسانية وير من قرى الخابور وسار جاولي إلى الموصل ، ولما وصل إليها فتح أهلها له بابها ولم يتمكن من بها من أصحاب قلج أرسلان من منعهم ونزل بظاهر البلد ، وأخذ كل واحد من أصحاب جكرمش الذي حضر الوقعة مع قلج أرسلان إلى جهة فلما ملك جاولي الموصل أعاد خطبة السلطان محمد وصادر جماعة من بها من أصحاب جكرمش وسار إلى جزيرة ابن عمر وبها حبشي بن جكرمش ومعه أمير من غلمان أبيه اسمه غرغلي فحصره مدة ثم إنهم صالحوه وحملوا إليه ستة آلاف دينار وغيرها من الدواب والثياب ، ورحل عنهم إلى الموصل وأرسل ملكشاه بن قلج أرسلان إلى السلطان محمد .

ذكر أحوال الباطنية بأصبهان وقتل ابن عطاش

في هذه السنة ملك السلطان محمد القلعة التي كان الباطنية ملكوها بالقرب من أصبهان ، واسمها شاهدز ، وقتل صاحبها أحمد عبد الملك بن عطاش وولده وكانت هذه القلعة قد بناها ملكشاه واستولى عليها بعده أحمد بن عبد الملك بن عطاش وسبب ذلك أنه اتصل بدزدار كان لها فلما استولى أحمد عليها وكان الباطنية باصبهان قد ألبسوه تاجاً وجمعوا له أموالاً وإنما فعلوا ذلك به لتقدم أبيه عبد الملك في مذهبهم فإنه كان بليناً حسن الخط سريع البديهة عفيفا وابتلي بحب هذا المذهب وكان

هذا ابنه أحمد جاهلاً لا يعرف شيئاً وقيل لابن الصباح صاحب قلعة الموت : لماذا تعظم ابن عطاش مع جهله ؟ قال : لمكان أبيه لأنه كان أستاذي وصار لابن عطاش عدد كثير وبأس شديد واستفحل أمرة بالقلعة فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤهم ، وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ،وتمشى لهم الأمر بالخلف الواقع بين السلطانين بركيارق ومحمد

فلما صفت السلطنة لمحمد ولم يبق له منازع لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التي بأيديهم لأن بها أكثر وهي متسلطة على سرير ملكه . فخرج بنفسه فحاصرهم في سادس شعبان ، وكان قد عزم على الخروج أول رجب فساء ذلك من يتعصب لهم من العسكر ، فارجفوا أن قلج أرسلان بن سليمان قد ورد بغداد وملكها وافتعلوا في ذلك مكاتبات ، ثم أظهروا أن خللاً قد تجدد بخراسان فتوقف السلطان لتحقيق الأمر فلما ظهر بطلانه عزم عزيمة مثله وقصد حربهم وصد جبلاً يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت في أعلاه ، واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للذحول التي يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الأمراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم .أمير ، فضاق الأمر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات قلما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها : ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر؟ وان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وإنما يخالفون في الإمام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى ؟ فاجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك . وتوقف بعضهم فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السمنجاني وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس : يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فإنهم يقال لهم أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فإنهم يقولون نعم وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع . وطالت المناظرة في ذلك .

ثم إن الباطنية سألوا السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم وعينوا على أشخاص من العلماء منهم القاضي أبو العلاء صاعد بن يحمى شيخ الحنفية باصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا إليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وإنما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلجّ حينئذ السلطان في حصرهم فلما رأوا عين المحاققة أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا عوضاً عنها قلعة خالنجان وهي على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا : إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمي به منهم فأشير على السلطان إجابتهم إلى ما طلبوا فسألوا أن يؤخرهم الى النوروز ليرحلوا إلى خالنجان ويسلموا

قلعتهم وشرطوا أن لا يسمع قول منتصح فيهم لان قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم ، وأن من أتاه منهم رده إليهم فأجابهم إليه وطلبوا أن يحمل إليهم من الإقامة ما يكفيهم يوماً بيوم فأجيبوا إليه في كل هذا ، وقصدهم المطاولة انتظارا لفتق أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان سعد الملك ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون إليه فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الأطعمة ما يجمعونه ليمتنعوا في قلعتهم . ثم إنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم فوثبوا عليه وجرحوه وسلم منهم فحينئذ أمر السلطان بإخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بأرجان وهي لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس ، وأن يقيم البقية منهم في ضرس من القلعة إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا إلى ذلك فنزل منهم إلى الناظر وإلى طبس وساروا وتسلم السلطان القلعة وخربها ثم إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذي بقي بيده ، ورأى السلطان منه الغدر والعود عن الذي قرره فأمر بالزحف إليه فزحف الناس عامة ثاني ذي القعدة . وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم وشجاعة زائدة ، وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم فقال لهم : إني أدلكم على عورة لهم فاتى بهم إلى جانب لذلك السن لهم لا يرام فقال لهم : اصعدوا من ههنا فقيل : إنهم قد ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال ، فقال : إن الذي ترون أسلحة وكزا غندات قد جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقي ثمانين

رجلاً فزحف الناس من هناك فصعدوا منه وملكوا الموضع ، وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من دخل فخرجوا معهم وأما ابن عطاش فانه أخذ أسيراً فترك أسبوعاً ثم إنه أمر به فشهر في جميع البلد وسلخ جلده فتجلد حتى مات وحشي جلده تبناً وقتل ولده وحمل رأساهما إلى بغداد ، وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكان معها جواهر نفيسة لم يوجد مثلها ، فهلكت أيضاً وضاعت ، وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتي عشرة سنة .

في هذه السنة اختلف سيف الدولة صدقة بن مزيد ومهذب الدولة السعيد بن أبي الجبر صاحب البطيحة ، وانضاف حماد بن أبي الجبر إلى صدقة وأظهر معاداة ابن عمه مهذب الدولة ثم اتفقوا . وكان سبب ذلك أن صدقة لما أقطعه السلطان محمد مدينة واسط ضمنها منه مهذب الدولة واستناب في الأعمال أولاده وأصحابه فمدوا أيديهم في الأموال وفرطوا فيها وفرقوها ، فلما انقضت السنة طالبه صدقة بالمال وحبسه ثم سعى في خلاصه بدران بن صدقة - وهو صهر مهذب الدولة - فأخرجه من الحبس وأعاده إلى بلده البطيحة وضمن حماد بن أبي الجبر واسطاً فانحل على.مهذب الدولة كثير من أمره فآل إلى الاختلاف بعد الاتفاق فإن المصطنع إسماعيل - جد حماد - والمختص محمداً - والد مهذب الدولة - أخوان وهما ابنا أبي الجبر وكانت إليهما رياسة أهلهما وجماعتهما ، فهلك المصطنع وقام ابنه أبو السيد المظفر والد حماد مقامه ، وهلك المختص محمد وقام ابنه مهذب الدولة مقامه وصارا يتنازعان ابن الهيثم صاحب البطيحة ويقاتلانه إلى أن أخذه مهذب الدولة أيام كوهرائين وسلمه إلى كوهرائين فحمله إلى أصبهان فهلك في طريقها ، فعظم أمر مهذب الدولة وصيّر كوهرائين أمير البطيحة فصار ابن عمه وجماعة تحت حكمه ، وكان حماد شاباً فأكرمه مهذب الدولة وزوجه بنتاً له وزاد في أقطاعه فكثر ماله فسار يحسد مهذب الدولة ويضمر بغضه وربما ظهر في بقض الأوقات ، وكان مهذب الدولة يداريه بجهده . فلما هلك كوهرائين انتقل حماد عن مهذب الدولة وأظهر ما في نفسه فاجتهد مهذب الدولة في إعادته إلى ما كان فلم يفعل فسكت عنه ، فجمع النفيس بن مهذب الدولة جمعاً وقصد حماداً فهرب منه إلى سيف الدولة بالحلة فأعاده صدقة ومعه جماعة من الجند فحشد مهذب الدولة فأرسل حماد إلى صدقة

يعرفه ذلك فأرسل إليه كثيراً من الجند فقوي عزم مهذب الدولة على المحاربة لئلا يظن به العجز فأشار عليه أهله بترك الخروج من موضعه لحصانته ، فلم يفعل وستر سفنه وأصحابه في الأنهر فجعل حماد وأخوه له الكمناء واندفعوا من بين أيديهم فطمع أصحاب مهذب الدولة وتبعوهم فخرج عليهم الكمناء فلم يسلم منهم إلا من لم يحضر أجله ، فقتل منهم وأسر خلق كثير ، فقوي طمع حماد وأرسل إلى صدقة يستنجده فأرسل إليه مقدم جيشه سعيد بن حميد العمري وغيره من المقدمين ، وجمعوا السفن

ليقاتلوا مهذب الدولة فرأوا أمراً محكماً قلم يمكنهم الدخول إليه وكان حماد بخيلاً ومهذب الدولة جواداً ، فأرسل إلى سعيد بن حميد الإقامات الوافرة والصلات . الكثيرة واستماله فمال إليه واجتمع به وتقرر الأمر على أن أرسل مهذب الدولة ابنه النفيس إلى صدقة فرضي عنه وأصلح بينهم وبين حماد ابن عمهم وعادوا إلى حال حسنة من الاتفاق وكان صلحهم في ذي الحجة سنة خمسمائة .

قتل وزير السلطان ووزارة أحمد بن نظام الملك

في شوال من هذه السنة قبض السلطان محمد على وزيره سعد الملك أبي المحاسن وأخذ ماله وصلبه على باب أصبهان ، وصلب معه أربعة نفر من أعيان أصحابه والمنتمين إليه أما الوزير فنسب إلى خيانة السلطان ، وأما الأربعة فنسبوا إلى اعتقاد الباطنية وكانت مدة وزارته سنتين وتسعة أشهر ، وكان في ابتداء حاله يصحب تاج الملك أبا الغنائم وتعطل بعده ثم استعمله مؤيد الملك بن نظام الملك فجعله على ديوان الاستيفاء وخدم السلطان محمداً لما حصره أخوه السلطان بركيارق باصبهان خدمة حسنة ولما فارقها محمد حفظها الحفظ التام وقام المقام العظيم فاستوزره محمد ووسع له في الِإقطاع وحكمه في دولته ثم نكبه ، وهذا آخر خدمة الملوك . وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان : أنعم الناس عيشاً من له ما يكفيه ، وزوجة ترضيه ، ولا يعرف أبوابنا هذه الخبيثة فتؤذيه . ولما قبض الوزير استشار السلطان فيمن يجعله وزيراً فذكر له جماعة فقال السلطان : إن آبائي دروا على نظام الملك البركة ولهم عليه الحق الكثير وأولاده أغذياء نعمتنا ولا معدل عنهم ؤم مر لأبي نصر أحمد هذا بالوزارة ، ولقب ألقاب أبيه قوام الدين نظام الملك ، صدر الِإسلام ، وكان سبب قدومه إلى باب السلطان أنه لما رأى

انقراض دولة أهل بيته لزم داره بهذا ان فاتفق أن رئيس همذان وهو الشريف أبو هاشم آذاه فسار إلى السلطان شاكياً منه ومتظلماً فقبض السلطان على الوزير وأحمد هذا في الطريق فلما وصل إليه ذكره وخلع عليه خلع الوزارة وحكمه ومكنه وقوى أمره وهذا من الفرج بعد الشدة فإنه حضر شاكيا فصار حاكماً .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة فى صفر عزل الوزير أبو القاسم علي بن جهير وزير الخليفة فقصد دار سيف الدولة صدقة ببغداد ملتجئاً إليها - وكانت ملجأ لكل ملهوف - فأرسل إليه صدقة

من أخذه إليه إلى الحلة ، وكانت وزارته ثلاث سنين وخمسة أشهر وأياماً وأمر الخليفة بنقض داره التي بباب العامة وفيها عبرة فان أباه أبا نصر بن جهير بناها بأنقاض أملاك الناس وأخذ بسببها أكثر ما دخل فيها فخربت عن قريب ولما عزل استنيب قاضي القضاة أبو الحسن بن الدمغاني ، ثم تقررت الوزارة في المحرم من سنة إحدى وخمسمائة لأش المعالي هبة الله بن محمد بن المطلب وخلع عليه فيه . وفيها في شوال توفي الأمير أبو الفوارس سرخاب بن بدر بن مهلهل المعروف بابن أبي الشوك الكردي وكانت له أموال كثيرة وخيول لا تحص وولي الأمر بعده أبو منصور بن بدر وقام مقامه وبقيت الإمارة في بيته مائة وثلاثين سنة وقد تقدم من أخباره ما فيه كفاية .

وفي هذه السنة توفي أبو الفتح أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد الحداد الأصبهاني ابن أخت عبد الرحمن بن أبي عبدالله بن مندة ومولده سنة ثمان وأربعمائة وكان مكثراً من الحديث مشهوراً بالرواية . وفيها توفي أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي في صفر وهو مكثر من الرواية وله تصانيف حسنة وأشعار لطيفة وهو من أعيان الزمان وعبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب أبو محمد الشيرازي الفقيه ولي التدريس بالنظامية ببغداد سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وكان يروي الحديث أيضاً وأبو الحسين المبارك .بن عبد الجبار بن أحمد الصيرفي المعروف بابن الطيوري البغدادي ومولده سنة إحدى عشرة وأربعمائة وكان مكثراً من الحديث ثقة صالحاً عابداً وأبو الكرم المبارك بن الفاخر بن محمد بن يعقوب النحوي سمع الحديث من أبي الطيب الطبري والجوهري وغيرهما وكان إماماً في النحو واللغة .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسمائة

ذكر قتل صدقة بن مزيد

في هذه السنة في رجب قتل الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبير بن مزبد الأسدي أمير العرب ، وهو الذي بنى الحلة السيفية بالعراق . وكان قد عظم شانه وعلا قدره واتسع جاهه واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم وكان كثير العناية بأمور السلطان والتقوية ليده والشد منه على أخيه بركيارق حتى انه جاهر بركيارق حتى انه جاهر بركيارق بالعداوة ولم يبرح على مصافاة السلطان محمد وزاده محمد أقطاعاً من جملته مدينة واسط وأذن له في أخذ البصرة ثم أفسد ما بينهما العميد أبو جعفر محمد بن الحسين البلخي وقال في جملة ما قال عنه : إن صدقة قد عظم أمره وزاد حاله وكثر إدلاله ويبسط في .الدولة وحمايته كل من يفر إِليه من عند السلطان ، وهذا لا تحتمله الملوك لأولادهم ولو أرسلت بعض أصحابك لملك بلاده وأمواله ، ثم إنه تعدى ذلك حتى طعن في اعتقاده ونسبه وأهل بلده إلى مذهب الباطنية وكذب وإنما كان مذهبه التشيع لا غير. ووافق أرغون السعدي أبا جعفر العميد وانتهى ذلك إلى صدقة ، وكانت زوجة أرغون بالحلةّ وأهله فلم يؤاخذهم بشيء مما كان له أيضاً هناك من بقايا خراج ببلده فأمر صدقة أن يخلص ذلك إليه بأجمعه ويسلم إلى زوجته . وأما سبب قتله فان صدقة كان كما ذكرنا يستجير به كل خائف من خليفة وسلطان وغيرهما ، وكان السلطان محمد قد سخط على أي دلف سرخاب بن كيخسرو صاحب ساوة وآبة فهرب منه وقصد صدقة ، فاستجار به فأجاره فأرسل السلطان يطلب من صدقة أن يسلمه إلى نوابه فلم يفعل وأجاب إنني لا أمكن منه بل أحامي عنه وأقول ما قاله أبو طالب لقريش لما طلبوا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ونسلمه حق نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وظهر منه أمور أنكرها السلطان ، فتوجه إلى العراق ليتلافى هذا الأمر ، فلما سمع صدقة استشار أصحابه في الذي يفعله فأشار عليه ابنه دبيس بان ينفذه إلى السلطان ومعه الأموال والخيل والتحف ليتعطف له السلطان . وأشار سعيد بن حميد صاحب جيش صدقة بالمحاربة وجمع الجند وتفريق المال فيهم واستطال في القول ، فمال صدقة إلى قوله وجمع العساكر واجتمع إليه عشرون ألف فارس وثلاثون ألف راجل فأرسل إليه المستظهر بالله يحذره عاقبة أمره وينهاه عن الخروج عن طاعة السلطان ويعرض له توسط الحال فاجاب صدقة إنني على طاعة السلطان لكن لا آمن على نفسي في الاجتماع به ، وكان الرسول بذلك عن الخليفة نقيب النقباء علي بن طراد الزينبي . ثم أرسل السلطان أقض القضاة أبا سعيد الهروي إلى صدقة يطيب قلبه ويزيل خوفه ويأمره بالانبساط على عادته ويعرفه عزمه على قصد الفرنج ويأمره بالتجهيز للغزاة معه فاجاب : إن السلطان قد أفسد أصحابه قلبه عليَّ وغيروا حالي معه وزال ما كان جمليه في حقيِ من الإنعام وذكر سالف خدمته ومناصحته . وقال سعيد بن حميد صاحب جيشه : لم يبق لنا في صلح السلطان مطمع ولترين خيولنا يبخلون . وامتنع صدقة من الاجتماع بالسلطان ووصل السلطان إلى بغداد في العشرين من ربيع الأخر.ومعه وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك ، وسير البرسقي شحنة بغداد في جماعة من الأمراء إلى صرصر(ا) فنزلوا عليها وكان وصول السلطان جريدة لا يبلغ عسكره ألفي فارس . فلما تيقن ببغداد مكاشفة صدقة أرسل إلى الأمراء يأمرهم بالوصول إليه والجد في السير وتعجيل ذلك . فوردوا إليه من كل جانب . ثم وصل كتاب صدقة إلى ا الخليفة في جمادى الأولى يذكر أنه واقف عند ما يرسم له ويقرر من حاله مع السلطان

ومهما أمرته من ذلك امتثله فانفذ الخليفة الكتاب إلى السلطان فقال السلطان : أنا ممتثل ما يأمر به الخليفة ولا مخالفة عندي ، فأرسل الخليفة إلى صدقة يعرفه إجابة السلطان إلى ما طلب منه ويأمره بإنفاذ ثقته ليستوثق له ، وبحلف السلطان على ما يقع الاتفاق عليه ، فعاد صدقة عن ذلك الرأي وقال : إذا رحل السلطان عن بغداد أمددته بالمال والرجال وما يحتاج إليه في الجهاد، وأما الآن وهو ببغداد وعسكره بنهر الملك فما عندي مال ولا

(ا) صرصر : قريتان من سواد بغداد ، صرصر العليا وصرصر السفلى ، وهما على ضفة نهر عيسى. وقيل : صرصر في طريق الحاج من بغداد قد كانت تسس صرصر الدير .

غيره ، وأن جاولي سقاوو وأيلغازي بن أرتق أرسلا إلي بالطاعة لي والموافقة معي على محاربة السلطان وغيره ، ومتى أردتهما وصلا إلي في عساكرهما .

وورد إلى السلطان قرواش بن شرف الدولة ، وكرماوي بن خراسان التركماني ،وأبو عمران فضل بن ربيعة بن حازم بن الجراح الطائي وآباؤه كانوا أصحاب البلقاء والبيت المقدس منهم : حسان بن المفرج الذي مدحه التهامي ، وكان فضل تارة مع الفرنج وتارة مع المصريين ، فلما رآه طغتكين أتابك على هذه الحال طردة من الشام فلما طرده التجأ إلى صدقة وعاقده فأكرمه صدقة وأهدى له هدايا كثيرة منها سبعة آلاف دينار عيناً . فلما كانت هذه الحادثة بين صدقة والسلطان سار في الطلائع ثم هرب إلى السلطان فلما وصل خلع عليه وعلى أصحابه وأنزله بدار صدقة ببغداد ، فلما سار إلى قتال صدقة استأذنه فضل في إتيان البرية ليمنع صدقة من الهرب إن أراد ذلك فاذن له فعبر بالأنبار وكان آخر العهد به ، وأنفذ السلطان في جمادى الأولى إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني فاخرج عنها نائب صدقة وأمن الناس كلهم إلا أصحاب صدقة فتفرقوا ولم ينهب أحد ، وأنفذ خيله إلى بلد قُوْسَان (إ) وهو من أعمال صدقة فنهبه أقبح نهب وأقام عدة أيام فأرسل صدقة إليه ثابت بن سلطان وهو ابن عم صدقة ومعه عسكر ، قلما وصلوا إليها خرج منها ا،لأتراك وأقام ثابت بها، وبينه وبينهم دجلة. ثم إن ابن بوقا عبر جماعة من الجند ارتضاهم وعرف شجاعتهم فوقفوا على موضع مرتفع على نهر سالم يكون ارتفاعه نحو خِمسين ذراعاً فقصدهم ثابت وعسكره لم يقدروا يقربون الترك من النشاب والمدد يأتيهم من ابن بوقا ، وجرح ثابت في وجهه وكثر الجراح في أصحابه فانهزم هو ومن معه وتبعهم الأتراك فقتلوا منهم وأسروا ونهب طائفة من

الترك مدينة واسط واختلط بهم رجالة ثابت فنهبت معهم ، فسمع ابن بوقا الخبر فركب إليهم ومنعهم وقد نهبوا بعض البلد ونادى في الناس بالأمان . وأقطع السلطان أواخر جمادى الأولى مدينة واسط لقسيم الدولة البرسقي وأمر ابن بوقا بقصد بلد صدقة ونهبه فنهبوا فيه ما لا يحد.

وأما السلطان محمد فإنه سار عن بغداد إلى الزعفرانية ثاني جُمادى الآخرة

(ا) قوسان : كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط ونهره الذي يسقي زروعه يقال له الزاب الأعلى .

فأرسل إليه الخليفة وزيره مجد الدولة بن المطلب يأمره بالتوقف وترك العجلة خوفاً على الرعية من القتل والنهب ، وأشار قاضي أصبهان بذلك واتباع أمر الخليفة فأجاب السلطان إلى ذلك فأرسل الخليفة إلى صدقة نقيب النقباء علي بن طراد وجمال الدولة مختصاً الخادم فسار إلى صدقة فأبلغاه رسالة الخليفة يأمره بطاعة السلطان وينهاه عن المخالفة فاعتذر صدقة وقال : ما خالفت الطاعة ولا قطعت الخطبة في بلدي وجهز ابنه دبيساً ليسير معهما إلى السلطان فبينما الرسل وصدقة في هذا الحديث إذ ورد الخبر أن طائفة من عسكر السلطان قد عبروا من مطير أباذ وأن الحرب بينهم وبين أصحاب صدقة قائمة على ساق فتجلد صدقة لأجل الرسل وهو يشتهي الركوب إلى أصحابه خوفاً عليهم ، وكان الرسل إذا سمعوا ذلك ينكرونه لأنهم قد تقدموا إلى العسكر عند عبورهم عليهم أنه لا يتعرض أحد منهم إلى حرب حتى نعود فإن الصلح قد قارب فقال صدقة للرسول : كيف أثق أرسل ولدي الآن وكيف آمن عليه وقد جرى ما ترون فإن تكفلتم برده إلي أنفذته فلم يتجاسروا على كفالته . فكتب إلى الخليفة يعتذر عن إنفاذ ولده بما جرى . وكان سبب هذه الوقعة أن عسكر السلطان لما رأوا الرسل اعتقدوا وقوع الصلح فقال بعضهم : الرأي أننا ننهب شيئاً قبل الصلح فأجاب البعض وامتنع البعض فعبر من أجاب النهر ولم يتأخر من لم يجب لئلا ينسب إلى خَوَرٍ وجبن ولئلا يتم على من عبروهن فيكون عاره وأذاه عليهم فعبروا بعدهم أيضاً فاتاهم أصحاب صدقة وقاتلوهم ، فكانت الهزيمة على الأتراك وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر جماعة من أعيانهم وكثير من غيرهم وغرق جماعة منهم الأمير محمد بن باغيسيان الذي كان أبوه صاحب أنطاكية وكان عمره نيفاً وعشرين سنة ، وكان محباً للعلماء وأهل الدين وبنى

بإقطاعه من أذربيجان عدة مدارس ولم يجسر الأتراك يعرفون السلطان بما أخذ منهم من الأموال والدواب خوفاً منه حيث فعلوا ذلك بغير أمره ،وطمع العرب بهذه الهزيمة وظهر منهم الفخر والتيه والطمع وأظهروا أنهم باعوا كل أسير بدينار ، وأن ثلاثة باعوا أسيراً بخمسة قراريط وأكلوا بها خبزاً وهريسة وجعلوا ينادون من يتغذى بأسير ويتعشى بآخر ، وظهر من الأتراك اضطراب عظيم. وأعاد الخليفة مكاتبة صدقة بتحرير أمر الصلح فاجاب أنه لا يخالف ما يؤمر به ، وكتب صدقة أيضاً إلى السلطان يعتذر مما نفل عنه ومن الحرب التي كانت بين أصحابه وبين الأتراك وأن جند السلطان عبرت إلى أصحابه فمنعوا عن أنفسهم بنير علمه ، وأنه بم يحضر الحرب ولم ينزع يداً من طاعة ولا قطع خطبته من بخلده ولم يكن

صدقة كاتبه قبل هذا الكتاب . فأرسل الخليفة نقيب النقباء وأبا سعد الهروي إلى صدقة فقصدا السلطان أولاً وأخذا يده بالأمان لمن يقصده من أقارب صدقة فلما وصلا إلى صدقة وقالا له عن الخليفة إن إصلاح قلب السلطان موقوف على إطلاق الأسرى ، ورد جميع ما أخذ من العسكر المنهزم فاجاب أولاً بالخضوع والطاعة ثم قال : لو قدرت على الرحيل من بين يدي السلطان لفعلت لكن ورائي من طهري وظهر أبي وجدي ثلاثمائة امرأة ولا يحملهن مكان . ولو علمت أنني إذا جئت السلطان مستسلما قبلني واستخدمني لفعلت لكنني أخاف أنه لا يقبل عثرتي ولا يعفو عن زلتي ، وأما ما.نهب فإن الخلق كثير وعندي من لا أعرفه وقد نهبوا ودخلوا البر فلا طاقة لي عليهم ، ولكن إن كان السلطان لا يعارضني فيما في يدي ولا فيمن أجرته وأن يقر سرخاب بن كيخسرو على إقطاعه بسارة وأن يتقدم إلى ابن بوقا بإعادة ما نهب من بلادي ، وأن يخرج وزير الخليفة يحلفه بما أثق اليه من الايمان على المحافظة فيما بيني وبينه فحينئذ أخدم بالمال وأدوس بساطه بعد ذلك فعادوا بهذا ومعهم أبو منصور بن معروف رسول صدقة فردّهم الخليفة وأرسل السلطان معهم قاضي أصبهان أبا اسماعيل .

فأما أبو إسماعيل فلم يصل إليه ، وعاد من الطريق وأصر صدقة على القول الأول ، فحينئذ سار السلطان ثامن رجب من الزعفرانية ، وسار صدقة في عساكره إلى قرية مطر ، وأمر جنده بلبس السلاح ، واستأمن ثابت بن سلطان بن دبيس بن جملي بن لا مزيد، وهو ابن عم صدقة إلى السلطان محمد ، وكان يحسد صدقة ، وهو الذي تقدم ذكره أنه كان بواسط فأكرمه السلطان وأحسن إليه ووعده الإقطاع ، ووردت العساكر إلى السلطان منهم بنو برسق وعلاء الدولة أبو كاليجار

كرشاسب بن علي بن فرامرز أبي جعفر بن كاكويه وآباؤه كانوا أصحاب أصبهان وفرامرز هو الذي سلمها إلى طغرلبك ، وقتل أبوه مع تتش وعبر عسكر السلطان دجلة ولم يعبر هو فصاروا مع صدقة على أرض واحدة بينهما نهر ، والتقوا تاسع عشر رجب وكانت الريح في وجوه أصحاب السلطان فلما التقوا صارت في ظهورهم وفي وجوه أصحاب صدقة ، ثم إن الأتراك رموا بالنشاب فكان يخرج في كل رشقة عشرة آلاف نشابة ، فلم يقع سهم إلا في فرس أو فارس ، وكان أصحاب صدقة كلما حملوا منعهم النهر من الوصول إلى الأتراك والنشاب ، ومن عبر منهم لم يرجع وتقاعدت عبادة وخفاجة وجعل صدقة ينادي : يا آل خزيمة ، يا

آل ناشرة ، يا آل عوف . ووعد الأكراد بكل جميل لما ظهر من شجاعتهم ، وكان راكباً على فرسه المهلوب ، ولم يكن لأحد مثله فجرح الفرس ثلاث جراحات ، وأخذه الأمير أحمديل بعد قتل صدقة ، فسيره إلى بغداد في سفينة فمات قب الطريق ، وكان لصدقة فرس آخر قد ركبه حاجبه أبو نصر بن تفاحة ، فلما رأى الناس وقد غشوا صدقة هرب عليه فناداه صدقة فلم يجبه ، وحمل صدقة على الأتراك ، فضربه غلام منهم على وجهه فشوهه وجعل يقول : أنا ملك العرب ، أنا صدقة فأصابه سهم في طهره ، وأدركه غلام اسمه بزغش كان أشلّ فتعلق به وهو لا يعرفه ، وجذبه عن فرسه ، فسقط إلى الأرض هو والغلام ، فعرفه صدقة فقال : يا بزغش ارفق ، فضربه بالسيف فقتله ، وأخذ رأسه ، وحمله إلى البرسقي ، فحمله إلى السلطان ، فلما رآه عانقه وأمر لبزغش بصلة ، وبقي صدقة طريحاً إلى أن سار السلطان فدفنه إنسان من المدائن وكان عمره تسعاً وخمسين سنة ، وكانت إمارته إحدى وعشرين سنة ، وحمل رأسه إلى بغداد ، وقتل من أصحابه ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس فيهم جماعة من أهل -بيته وقتل من بني شيبان خمس وتسعون رجلاً ، وأسر ابنه دبيس بن صدقة ، وسرخاب بن كيخسرو الديلمي الذي كانت هذه الحرب بسببه ، فأحضر بين يدي السلطان فطلب الأمان ، فقال : قد عاهدت الله أنني لا أقتل أسيراً ، فإن ثبت عليك أنك باطني قتلتك ، وأسر سعيد بن حميد العمري صاحب جيش صدقة وهرب بدران بن صدقة إلى الحلة، فاخذ من المال وغيره ما أمكنه وسيَّر أمه ونساءه إلى البطيحة إلى مهذب الدولةَ أبي العباس أحمد بن أبي الجبر . وكان بدران صهر مهذب الدولة على ابنته ونهب من الأموال ما لا حد له وكان له من الكتب المنسوبة الخط شيء كثير ألوف مجلدات ، وكان يحسن يقرأ ولا

يكتب ، وكان جواداً حليماً صدوقاً كثير البر والإحسان ما برح ملجأ لكل ملهوف ، يلقى من يقصده بالبر والتفضل ويبسط قاصديه ويزورهم وكان عادلاً والرعايا معه في أمن ودعة ، وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها فما ظنك بغير هذا . ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة وكان أصحابه يودعون أمواله في خزانته ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد، ولم يسمع برعية أحبت أمرها كحب رعيته له . وكان متواضعاً محتملاً يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله لقد كان من محاسن الدنيا . وعاد السلطان إلى بغداد ولم يصل إلى الحلة وأرسل إلى البطيحة أماناً لزوجة صدقة وأمرها بالظهور فأصعدت إلى بغداد ، فاطلق السلطان ابنها دبيساً وأنفذ معه جماعة من الأمراء

إلى لقائها فلما لقيها ابنها بكيا بكاءً شديداً ، ولما وصلت إلى بغداد أحضرها السلطان واعتذر من قتل زوجها وقال : وددت أنه حمل إلي حتى كنت أفعل معه ما يعجب الناس به من الجميل والإحسان لكن الأقدار غلبتني واستحلف ابنها دبيساً أنه لا يسعى ، بفساد.

ذكر وفاة تميم بن المعز صاحب إفريقية وولاية ابنه يحيى

في هذه السنة في رجب توفي تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وكان شهماً شجاعاً ذكياً له معرفة حسنة وكان حليماً كثير العفو عن الجرائم العظيمة ، وله شعر حسن فمنه أنه وقع حرب بين طائفتين من العرب وهم عُدي ورياح فقتل رجل من رياح ثم اصلحوا وأهدروا دمه وكان صلحهم مما يضرُّ به وببلاده فقال أبياتاً يحرِّض على الطلب بدمه وهي :

ـ متى كانت دماؤكم تطل أما فيكم بثأر مستقل

ـ أغانم ثم سالم إن فشلتم فما كانت أوائلكم تذل

ـ ونمتم عن طلاب الثار حتى كأن العز فيكم مضمحل

ـ وما كسرتم فيه العوالي ولا بيض تفل ولا تسل

فعمد إخوة المقتول فقتلوا أميراً من عدي ، واشتد بينهم القتال وكثرت القتلى حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية .

قيل إنه اشترى جارية بثمن كثير فبلغهِ أن مولاها الذي باعها ، ذهب عقله وأسف على فراقها فأحضره تميم بين يديه وأرسل الجارية إلى داره ومعها من الكسوات والأواني الفضة وغيرها ومن الطيب وغيره شيء كثير لم ثم أمر مولاها بالانصراف - وهو لا يعلم

بذلك - فلما وصل إلى داره ورآها على تلك الحال وقع مغشياً علية لكثرة سروره ثم أفاق فلما كان الغد أخذ الثمن وجميع ما كان معها وحمله إلى دار تميم فانتهره وأمره إعادة جميع ذلك إلى داره . وكان له في البلاد أصحاب أخبار يجري عليهم أرزاقاً سنية ليطالعوه بأحوال أصحابه لئلا يظلموا الناس ، فكان بالقيروان تاجر له مال وثروة فذكر في بقض الأيام التجار تميماً ودعوا له وذلك التاجر حاضر فترحم على أبيه المعز ولم يذكره فرفع ذلك إلى تميم فأحضره الى قصره وسأله : هل ظلمتك ؟ فقال : لا، قال : فهل

ظلمك بعض أصحابي ؟ قال : لا، قال : فلم أطلقت لسانك أمس بذمي . فسكت ، فقال : لولا أن يقال شره في ماله لقتلتك ثم أمر به فصفع في حضرته قليلاً ثم أطلقه فخرج أصحابه ينتظرونه فسألوه عن خبره فقال : أسرار الملوك لا تذاع ، فصارت بإفريقية مثلاً ولما توفي كان عمره تسعاً وسبعين سنة وكانت ولايته ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً وخلّف من الذكور ما يزيد على مائة ومن البنات ستين بنتاً ، ولما توفي ملك بعده ابنه يحيى بن تميم وكانت ولادته بالمهدية لأربع بقين من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وكان عمره حين ولي ثلاثاً وأربعين سنة وستة أشهر وعشرين يوماً ولما ولي فرق أموالاً جزيلة وأحسن السيرة في الرعية .

ذكر ملك يحيى قلعة قليبية.

لما ملك يحيى بن تميم بعد أبيه جرَّد عسكراً كثيفاً إلى قلعة قليبية وهي من أحصن قلاع إفريقية ، فنزل عليها وحصرها حصاراً شديداً ولم يبرح حتى فتحها وحصنها ، وكان أبو تميم قد رام فتحها فلم يقدر على ذلك ولم يزل مظفراً منصوراً لم يهزم له جيش .

ذكر قدوم ابن عمار بغداد مستنفراً

في هذه السنة في شهر رمضان ورد القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس الشام إلى بغداد قاصداً باب السلطان محمد مستنفراً على الفرنج طالباً لتسيير العساكر لِإزاحتهم ، والذي حثه على ذلك أنه لما طال حصر الفرنج لمدينة طرابلس على ما ذكرناه ضاقت عليه الأقوات وقلّت واشتدَّ الأمر عليه وعلى أهل البلد، فمنَّ الله عليهم سنة خمسمائة بميرة في البحر من جزيرة قبرس وأنطاكية وجزائر البنادقة ، فاشتدت قلوبهم وقووا على حفظ البلد بعد أن كانوا استسلموا فلما بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد وزوال كل مخالف ، رأى لنفسه وللمسلمين قصده والانتصار به

فاستناب بطرابلس ابن عمه ذا المناقب وأمره بالمقام بها ، ورتب معه الأجناد براً وبحراً وأعطاهم جامكية ستة أشهر سلفاً وجعل كل موضع إلى من يقوم بحفظه بحيث إن ابن عمه لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك ، وسار إلى دمشق فأظهر ابن عمه الخلاف له والعصيان عليه ونادى بشعار المصريين ، فلما عرف فخر الملك

كتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي ففعلوا ما أمرهم . وكان ابن عمار قد استصحب معه من الهدايا ما لم يوجد عند ملك مثله من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة والخيل الرائقة ، فلما وصلها لقيه عسكرهما وطغتكين أتابك وخيم على طاهر البلد وسأله طغتكين الدخول إليه يوماً واحداً إلى الطعام وأدخله حمامه وسار عنها ومعه ولد طغتكين يشيعه ، فلما وصل إلى بغداد أمر السلطان كافة الأمراء بتلقيه وإكرامه وأرسل إليه شبارته وفيها دسته الذي يجلس عليه ليركب فيها ، فلما نزل إليها قعد بين يدي موضع السلطان فقال له من بها من خواص السلطان : قد أمرنا أن يكون جلوسك في دست السلطان فلما دخل على السلطان أجلسه وأكرمه وأقبل عليه بحديثه ، وسير الخليفة خواصه وجماعة أرباب المناصب فلقوه وأنزله الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة ، وكذلك أيضاً فعل السلطان وفعل معه ما لم يفعل مع الملوك الذين معهم أمثاله وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر . ولما اجتمع بالسلطان قدم هديته وسأله السلطان عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطوب في قتالهم ، فذكر له حاله وقوة عدوه وطول حصره وطلب النجدة وضمن أنه إذا سيّرت العساكر معه أوصل إليهم جميع ما يلتمسونه ، فوعده السلطان بذلك وحضر دار الخلافة وذكر أيضاً نحو مما ذكره عند السلطان وحمل هدية جميلة نفيسة وأقام إلى أن رحل السلطان عن بغداد في شوال فأحضره عنده بالنهروان قد تقدم إلى الأمير حسين بن أتابك قتلغتكين ليسير معه العساكر التي سيرها إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال جاولي سقاوو ليمضوا معه إلى الشام ، وخلع عليه السلطان خلعا نفيسة وأعطاه شيئاً كثيراً وودعه وسار ومعه الأمير حسين فلم يجد ذلك نفعاً وكان

ما نذكره بعد إن شاء اللهّ تعالى ثم إن فخر الملك بن عمار عاد إلى دمشق منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة فأقام بها أياماً وتوجه منها مع العسكر من دمشق إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهله . وأما أهل طرابلس فإنهم راسلوا الأفضل أمير الجيوش بمصر يلتمسون منه والياً عندهم ومعه الميرة في البحر فسير إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب والياً ومعه الغلة وغيرها مما تحتاج إليه البلاد في الحصار، فلما صارفيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجده من ذخائره وآلاته وغير ذلك وحمل الجميع إلى مصر في البحر.

في هذه السنة في شعبان أطلق السلطان محمد. الضرائب والمكوس ودار البيع والاجتيازات وغلا ذلك مما يناسبه بالعراق وكتبت به الألواح وجعلت في الأسواق . وفيها في شهر رمضان ولي القاضي أبو العباس بن الرطبي الحسبة ببغداد. وفيه أيضاً عزل الخليفة وزيره مجد الدين بن المطلب برسالة من السلطان بذلك ثم أعيد إلى الوزارة بإذن السلطان وشرط عليه شروطاً منها العدل وحسن السيرة وأن لا يستعمل أحداً من أهل الذمة وفيها عاد الأصبهبذ صباوو من دمشق وكان هرب عند قتل أياز فلما قدم أكرمه السلطان وأقطعه رحبة مالك بن طوق . وفيها سابع شوال خرج السلطان إلى طاهر بغداد عازماً على العود إلى أصبهان وكان مقامه هذه المرة خمسة أشهر وسبعة عشر يوماً.

وفيها في ذي الحجة احترقت خرابة ابن جردة فهلك فيها كثير من الناس ، وأما الأمتعة والأموال وأثاث البيوت فهلك منها ما لا حد له وخلص خلق بنقب نقبوه في سور المحلة إلى مقبرة باب أبرز وكان بها جماعة من اليهود فلم ينقلوا شيئاً لتمسكهم بسبتهم . وكان بقض أهله قد عبروا الى الجانب الغربي للفرجة على عادتهم في السبت الذي يلي العيد فعادوا فوجدوا بيوتهم قد خربت وأهلهم قد احترقوا وأموالهم قد هلكت . ثم تبع ذلك حريق في عدة أماكن منها درب القيار وقراح ابن زرين فارتاع الناس لذلك وأبطلوا معايشهم وأقاموا ليلاً ونهاراً يحرسون بيوتهم في الدروب وعلى السطوح وجعلوا عندهم الماء المعدّ لإطفاء النار ، فظهر أن سبب هذا الحريق أن جارية أحبت رجلًا فوافقته على المبيت عندها في دار مولاها سراً وأعدت له ما يسرقه إذا خرج ويأخذها هي أيضاً معه فلما أخذها طرحا النار في الدار وخرجا فاظهر الله عليهما وعجل الفضيحة لهما فأخذا وحبسا .

وفيها جمع بغدوين ملك الفرنج عسكره وقصد مدينة صور وحصرها وأمر ببناء حصن عندها على تل المعشوقة وأقام شهراً محاصراً لها فصانعه واليها على سبعة آلاف دينار فأخذها وش -حل عن المدينة ، وقصد مدينة صيدا فحصرها براً وبحراً ونصب عليها البرج الخشب ووصل الأسطول المصري في الدفع عنها والحماية لمن قيها فقاتلهم أسطول الفرنج فظهر المسلمون عليهم فاتصل بالفرنج مسير عسكر دمشق نجدة لأهل

صيدا فرحلوا عنها بغير فائدة . وفيها ظهر كوكب عظيم له ذوائب فبقي ليالي كثيرة ثم غاب .

وتوفي في هذه السنة في شعبان إبراهيم بن مياس بن مهدي أبو اسحاق القشيري الدمشقي سمع الحديث الكثير من الخطيب البغدادي وغيره . وتوفي في ذي القعدة أبو سعيد إسماعيل بن عمرو بن النيسابوري المحدث كان يقرأ الحديث للغرباء ، قرأ صحيح مسلم على عبد الغافر الفارسي عشرين مرة .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسمائة

ذكر استيلاء مودود وعسكر السلطان على الموصل وولاية مودود

في هذه السنة في صفر استولى مودود والعسكر الذي أرسله السلطان معه على مدينة الموصل وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوو . وقد ذكرنا سنة خمسمائة استيلاء جاولي عليها وما جرى بينه وبين جكرمش والملك قلج أرسلان وهلاكهما على يده ، وصار معه بعد ذلك العسكر الكثير والعدة التامة والأموال الكثيرة . وكان السلطان محمد قد جعل إليه ولاية كل بلد يفتحه فاستولى على كثير من البلاد والأموال . وكان سبب أخذ البلاد منه أنه لمَّا استولى عليها وعلى الأموال الكثيرة منها لم يحمل إلى السلطان منها شيئاً ، فلما وصل السلطان إلى بغداد لقصد بلاد سيف الدولة صدقة ، أرسل إلى جاولي يستدعيه إليه بالعساكر وكرر الرسل إليه فلم يحضر وغالط في الانحدار إليه وأظهر أنه يخاف أن يجتمع به ، ولم يقنع بذلك حتى كاتب صدقة وأظهر له أنه معه ومساعده على حرب السلطان وأطمعه في الخلاف والعصيان . فلما فرغ السلطان من أمر صدقة وقتله -كما ذكرناه -تقدم إلى الأمراء بني برسق وسكمان القطبي ومودود بن التونتكين ، وآقسنقر البرسقي ، ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي ، وأبي الهيجاء صاحب إربل بالمسير إلى الموصل وبلاد جاولي وأخذها منه ، فتوجهوا نحو الموصل فوجدوا جاولي عاصياً قد شيد سور الموصل وأحكم ما بناه جكرمش وأعد الميرة والأقوات والآلات واستظهر على الأعيان بالموصل فحبسهم وأخرج من أحداثها ما يزيد على عشرين ألفاً ونادى متى اجتمع عاميان على الحديث في هذا الأمر قتلتهما وخرج عن البلد ونهب السواد وترك بالبلد زوجته ابنة برسق ، وأسكنها القلعة ومعها ألف وخمسمائة فارس من الأتراك سوى غيرهم وسوى الرجالة ، ونزل العسكر عليها في شهر رمضان سنة إحدى وخمسمائة ،

وصادرت زوجته من بقي بالبلد وعسفت نساء

الخارجين عنه ، وبالغت في الاحتراز عليهم فأوحشهم ذلك ودعاهم إلى الانحراف عنها . وقوتل أهل البلد قتالاً متتابعاً فتمادى الحصار بأهلها من خارج ، والظلم من داخل ، إلى آخر المحرم والجند بها يمنعون عاميها من القرب من السور، فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين ومقدمهم جصاص يعرف بسعدي ،على تسليم البلد وتحالفوا على التساعد وأتوا وقت صلاة الجمعة والناس بالجامع وصدوا برجاً وأغلقوا أبوابه وقتلوا من به من الجند- وكانوا نياماً فلم يشعروا بشيء حتى قتلوا وأخذوا سلاحهم وألقوهم إلى الأرض ، وملكوا برجاً آخر ، ووقعت الصيحة وقصدهم مائتا فارس من العسكر ورموهم بالنشاب وهم يقاتلون وينادون بشعار السلطان ، فزحف عسكر السلطان إليهم ودخلوا البلد من ناحيتهم وملكوه ودخله الأمير مودود ونودي بالسكون والأمن وأن يعود الناس إلى دورهم وأملاكهم ، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام ورسالت الأمير مودود في أن يفرج لها عن طريقها وأن يحلف لها عن الصيانة والحراسة فحلف ، وخرجت إلى أخيها برسق بن برسق ومعها أموالها وما استولت عليه وولي مودود الموصل وما ينضاف إليها .

ذكر حال جاولي مدة الحصار

وأما جاولي فإنه لما وصل عسكر السلطان إلى الموصل وحفرها وسار عنها ،وأخذ معه القميص صاحب الرها الذي كان قد أسره سقمان وأخذه منه جكرمش -وقد آ ذكرنا ذلك - وسار إلى نصيبين وهي حينئذ للأمير أيلغازي بن أرتق وراسله وسأله الاجتماع به واستدعاه إلى معاضدته وأن يكونا يداً واحدة وأعلمه أن خوفهما من السلطان ينبغي أن يجعلهما على الاحتماء منه فلم يُجنْهُ أيلغازي إلى ذلك ، ورحل عن نصيبين ورتب بها ولده وأمره بحفظها من جاولي وأفي يقاتله إن قصده . وسار إلى ماردين ، فلما سمع جاولي ذلك عدل عن نصيبين

وقصد دارا وأرسل إلى أيلغازي ثانياً ني المعاني وسار بعد الرسول فبينما رسوله عند أيلغازي بماردين لم يشعر إلا وجاولي معه في القلعة وحده ، وقصد أن يتألفه ويستميله فلما رآه أيلغازي قام إليه وخدمه ، ولما رأى جاولي محسناً للظن فيه غير مستشعر منه لم يجد إلى دفعه سبيلا فنزل معه وعسكرا وبظاهر نصيبين وسارا منها إلى سنجار وحاصراها مدة فلم يجبهما صاحبه إلى صلح فتركاه وسارا نحو الرحبة وأيلغازي يظهر لجاولي المساعدة ويبطن الخلاف وينتظر فرصة

لينصرف عنه ، فلما وصلا إلى عرابان من الخابور هرب أيلغازي ليلاً وقصد نصيبين .

ذكر إطلاق جاولي للقمص الفرنجي

لما هرب أيلغازي من جاولي سار جاولي إلى الرحبة فلما وصل إلى مَاكِسِين (1) أطلق القمص الفرنجي الذي كان أسيراً بالموصل وأخذه معه واسمه بردويل ، وكان صاحب الرها وسَرُوج (2) وغيرهما ، وبقي في الحبس إلى الآن ، وبذل الأموال الكثيرة فلم يطلق ، فلما كان الآن أطلقه جاولي وخلع عليه وكان مقامه في السجن ما يقارب خمس سنين ، وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق أسرى المسلمين الذين في سجنه وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله ، فلما اتفقا على ذلك سير القمص إلى قلعة جعبر وسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك حتى ورد عليه ابن خالته جوسلين ، وهو من فرسان الفرنج وشجعانها وهو صاحب تل باشر وغيرها ، وكان أسر مع القمص في تلك الوقعة ففدى نفسه بعشرين ألف دينار فلما وصل جوسلين إلى قلعة جعبر أقام رهينة عوض القمص وأطلق القمص وسار إلى أنطاكية وأخذ جاولي جوسلين من قلعة جَعبر(3) فأطلقه وأخذ عوضه أخا زوجته وأخا زوجة القمص وسيَّره إلى القمص ليقوى به وليحثه على إطلاق الأسرى وإنفاذ المال وما ضمنه ، فلما وصل جوسلين إلى منبج أغار عليها ونهبها وكان معه جماعة من أصحاب جاولي فانكروا عليه ذلك ونسبوه الى الغدر فقال : إن هذه المدينة ليست لكم .

ذكر ما جرى بين هذا القمص وبين صاحب أنطاكية

لما أطلق القمص وسار إلى أنطاكية أعطاه طنكري صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وثياباً وغير ذلك . وكان طنكري قد أخذ الرها من أصحاب القمص حين أسر فخاطبه الآن في ردها عليه فلم يفعل فخرج من عنده إلى تل باشر ، فلما قدم عليه جوسلين وقد أطلقه جاولي

سرَّه ذلك وفرح به . وسار إليهما طنكري صاحب أنطاكية بعساكره ليحاربهما قبل أن يقوى أمرهما ويجمعا عسكراً ويلتحق بهما جاولي وينجدهما

(1) ماكسين : بكسر الكاف ، بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة .

(2) سروج : بفتح أوله ، وهي بلدة قريبة من حران من ديار مضر .

(3) قلعة جعبر : على الفرات مقابل صفين وكانت تعرف أولاً بدوسر .

فكانوا يقتتلون فإذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا ، وأطلق القمص من الأسرى المسلمين مائة وستين أسيراً كلهم من سواد حلب وكساهم وسترهم وعاد طنكري إلى أنطاكية من غير فصل حال في مغني الرها فسار القمص وجوسلين وأغارا على حصون طنكري صاحب أنطاكية والتجأ إلى ولاية كواسيل وهو رجل أرمني ومعه خلق كثير من المرتدين وغيرهم ، وهو صاحب رعبان وكيسوم وغيرهما من القلاع شمالي حلب ، فانجد القمص بألف فارس من المرتدين وألفي راجل فقصدهم طنكري فتنازعوا في أمر الرها فتوسط بينهم البطرك الذي ا لهم وهو عندهم كالإمام الذي للمسلمين لا يخالف أمره وشهد جماعة من المطارنة والقسيسين أن بيمند خال طنكري قال له لما أراد ركوب البحر والعود إلى بلاده أن يعيد الرها إلى القمص إذا خلص من الأسر ، فأعادها عليه طنكري تاسع صفر وعبر القمص الفرات ليسلم إلى أصحاب جاولي المال والأسرى ، فاطلق في طريقه خلقاً كثيراً من الأسرى من حران وغيرها وكان بسروج ثلاثمائة مسلم ضعفى فعمر أصحاب جاولي مساجدهم وكان رئيس سروج مسلما قد ارتد فسمعه أصحاب جاولي يقول في الإسلام قولاً شنيعاً فضربوه ، وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع فذكر ذلك للقمص فقال : هذا لا يصلح لنا ولا للمسلمين فقتله .

ذكر حال جاولي بعد إطلاق القمص

لما أطلق جاولي بماكسين سار إلى الرحبة فاتاه أبو النجم بدران وأبو كامل منصور ابنا سيف الدولة صدقة وكانا بعد قتل أبيهما بقلعة جَعبر عند سالم بن مالك فتعاهدوا على المساعدة والمعاضدة ووعدهما أنه يسير معهما إلى الحلة ، وعزموا أن يقدموا عليهم بكتاش بن بكتش بن ألب أرسلان فوصل إليهم وهم على هذا العزم الأصبهبذ صباوو- وكان قد قصد السلطان فاقطعه الرحبة

وقد ذكرناه - فاجتمع بجاولي وأشار عليه أن يقصد الشام ، فإن بلاده خالية من الأجناد والفرنج قد استولوا على كثير منها ، وعرفه أنه متى قصد العراق والسلطان بها أو قريباً منها لم يأمن شراً يصلُ إليه ، فقبل قوله وأصد عن الرحبة فوصل إليه رسل سالم بن مالك صاحب قلعة جَعبر يستغيث به من بني نمير- وكانت الرقة بيد ولده علي بن سالم - فوثب جوشن النميري ومعه جماعة من بني نمير فقتل علياً وملك الرقة ، فبلغ ذلك الملك رضوان فسار من حلب إلى صفين

فصادف تسعين رجلاً من الفرنج معهم مال من فدية القمص صاحب الرفا قد سيّره إلى جاولي فأخذه وأسر عدداً منهم وأتى الرقة ، فصالحه بنو نمير على مال فرحل عنهم إلى حلب فاستنجد سالم بن مالك جاولي وسأله أن يرحل إلى الرقة ويأخذها ووعده بما يحتاج إليه ، فقصد الرقة وحصرها سبعين يوماً فضمن له بنو نمير مالاً وخيلاً فأرسل إلى سالم : إنني في أمر أهم من هذا وأنا بازاء عدو ويجب التشاغل به دون غيره ، وأنا عازم على الانحدار إلى العراق فإن تم أمري فالرقة وغيرها لك ، ولا أشتغل عن هذا المهم بحصار خمسة نفر من بني نمير .

ووصل إلى جاولي الأمير حسن بن أتابك قتلغتكين وكان أبوه أتابك السلطان محمد فقتله ، وتقدم ولده فذا عند السلطان واختص به فسيره السلطان مع فخر الملك بن عمار ليصلح الحال مع جاولي ويأمر العساكر بالمسير مع ابن عمار إلى جهاد الكفار فحضر عند جاولي وأمر بتسليم البلاد وطيَّب قلبه عن السلطان وضمن الجميل إذا سلم البلاد وأظهر الطاعة والعبودية فقال جاولي : أنا مملوك السلطان وفي طاعته وحمل إليه مالاً وثياباً لها مقدار جليل قال له سر إلى الموصل ورجِّل العسكر عنها فإني أرسل معكم من يسلم ولدي إليك رهينة وينفذ السلطان إليها من يتولى أمرها وجباية أموالها ففعل حسين ذلك وسار معه صاحب جاولي فلما وصلا إلى العسكر الذي على الموصل وكانوا لم يفتحوها بعد فأمرهم حسين بالرحيل فكلهم أجاب إلا الأمير مودود فإنه قال لا أرحل إلا بأمر السلطان وقبض على صاحب جاولي وأقام على الموصل حتى فتحها كما ذكرناه وعاد حسين بن قتلغتكين إلى السلطان فاحسن النيابة عن جاولي عنده وسار جاولي إلى مدينة بالس فوصلها ثالث عشر صفر فاحتمى أهلها منه وهرب من بها من أصحاب

الملك رضوان صاحب حلب فحصرها خمسة أيام وملكها بعد أن نقب برجاً من أبراجها فوقع على النقابين فقتل منهم جماعة وملك البلد وصلب جماعة من أعيانه عند النقب وأحضر القاضي محمد بن عبد العزيز بن الياس فقتل وكان فيها صالحاً ونهب البلد وأخذ منه مالاً كثيراً.

ذكر الحرب بين جاولي والفرنج

وفي هذه السنة في صفر كان المصاف بين جاولي سقاوو وبين طنكري الفرنجي صاحب أنطاكية . وسبب ذلك أن الملك رضوان كتب إِلى طنكري صاحب أنطاكية

يعرفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع ، ويحذره منه ويعلمه أنه على قصد حلب وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام ، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه فأجابه طنكري إلى منعه وبرز من أنطاكية فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس ، فلما سع جاولي الخبر أرسل إلى القمص صاحب الرها يستدعيه إلى مساعدته وأطلق له ما بقي عليه من مال المفاداة ، فسار إلى جاولي فلحق به وهو على منبج ، فوصل الخبر إليه وهو على هذه الحال بان الموصل قد استولى عليها عسكر السلطان وملكوا خزائنه وأمواله ، فاشتد ذلك عليه وفارقه كثير من أصحابه منهم أتابك زنكي بن آقسنقر وبكتاش النهاوندي ، وبقي جاولي في ألف فارس وانضم إليه خلق من المطوعة فنزل بتل باشر ، وقاربهم طنكري وهو في ألف وخمسمائة فارس من الفرنج وستمائة من أصحاب ملك رضوان سوى الرجالة ، فجعل جاولي في ميمنته الأمير اقسيان والأمير التونتاش الأبري وغيرهما ، وفي الميسرة الأمير بدران بن صدقة والأصبهبذ صباوو وسنقر داراز وفي القلب القمص بغدوين وجوسلين الفرنجيين ووقعت الحرب فحمل أصحاب أنطاكية على القمص صاحب الرها . واشتد القتال فأزاح طنكري القلب عن موضعه وحملت ميسرة جاولي على رجالة أنطاكية فقتلت منهم خلقاً كثيراً ولم يبق غير هزيمة صاحب انطاكية فحينئذ عمد أصحاب جاولي إلى جنائب القمص وجوسلين وغيرهما من الفرنج فركبوها وانهزموا فمضى جاولي وراءهم فلم يرجعوا ، وكانت طاعته قد زالت عنهم حيز أخذت الموصل منه فلما رأى أنهم لا يعودون معه أهمه نفسه وخاف من المقام فانهزم وانهزم باقي عسكره ، فأما الأصبهبذ صباوو فسار نحو الشام وأما بدران بن صدقة فسار إلى قلعة جَعبر . وأما ابن جكرمش فقصد جزيرة ابن عمر .

وأما جاولي فقصد الرحبة وقتل من المسلمين خلق كثير ونهب صاحب أنطاكية أموالهم وأثقالهم وعظم البلاء عليهم من الفرنج ، وهرب القمص وجوسلين إلى تل باشر والتجأ إليهما خلق كثير من المسلمين ففعلا معهم الجميل وداويا الجرحى وكسوا العراة وسيّراهم إِلى بلادهم .

ذكر عود جاولي إلى السلطان

لما انهزم جاولي سقاوو قصد الرحبة فلما قاربها بات دونها في عدة فوارس فاتفق أن طائفة من عسكر الأمير مودود الذين أخذوا الموصل منه أغاروا على قوم من العرب يجاورون الرحبة فقاربوا جاولي وهم لا يشعرون به ولو علموا لأخذوه ، فلما رأى الحال

كذلك علم أنه لا يقدر أن يقيم في الجزيرة ولا بالشام ولا يقدر على شيء يحفظ به نفسه ويرجِع إليه ويداوي به مرضه غير قصد باب السلطان محمد عن رغبة واختيار ، وكان واثقاً بالأمير حسين بن قتلغتكين فرحل من مكانه وهو خائف حذر قد أخفى شخصه وكتم أمره وسار إلى عسكر السلطان ، وكان بالقرب من أصبهان ، فوصل إليه في سبعة عشر يوماً من مكانه لجده في السير فلما وصل المعسكر قصد الأمير حسين فحمله إلى السلطان فدخل إليه وكفنه تحت يده فأمنه وأتاه الأمراء يهنونه بذلك وطلب منه السلطان الملك بكتاش بن تكش فسلمه إليه فاعتقله بأصبهان .

ذكر الحرب بين طغتكين والفرنج والهدنة بغيرها

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين طغتكين أتابك والفرنج ، وسببها أن طغتكين سار إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت بغدوين الفرنجي ملك القدس فتحاربا واقتتلا وكان طغتكين في ألفي فارس وكثير من الرجالة . وكان ابن أخت ملك الفرنج في أربعمائة فارس وألفي راجل فلما اشتد القتال انهزم المسلمون فترجل طغتكين ونادى بالمسلمين وشجعهم فعاودوا الحرب وكسروا الفرنج وأسروا ابن أخت الملك وحمل إلى طغتكين فعرض عليه الإِسلام ، فامتنع منه وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار وإطلاق خمسمائة أسير فلم يقنع طغتكين منه بغير الإِسلام فلما فلم يجب قتله بيده ، وأرسل إلى الخليفة والسلطان الأسرى ثم اصطلح طغتكين وبغدوين ملك الفرنج على وضع الحرب أربع سنين . وكان ذلك من لطف اللّه تعالى بالمسلمين ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتي ذكرها أمراً عظيماً .

ذكر انهزام طغتكين من الفرنج

في هذه السنة انهزم أتابك طغتكين من الفرنج . وسبب ذلك أن حصن عِرْقَة(1) وهو من أعمال طرابلس

كان بيد غلام للقاضي فخر الملك أبي علي بن عمار صاحب طرابلس ، وهو من الحصون المنيعة فعصى على مولاه فضاق به القوت وانقطعت عنه

(1)عرقة : بكسر أوله وسكون ثانيه : بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ ، وهي آخر أعمال دمشق ، وهي في سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل .

الميرة لطول مكث الفرنج في نواحيه فأرسل إلى أتابك طغتكين صاحب دمشق وقال له : أرسل من يتسلم هذا الحصن مني قد عجزت عن حفظه ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج . فبعث إليه طغتكين صاحباً له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة رجل فتسلم الحصن فلما نزل غلام ابن عمار منه رماه إسرائيل في الأخلاط بسهم فقتله وكان قصده بذلك أن لا يطلع أتابك طغتكين على ما خلفه بالقلعة من المال . وأراد طغتكين قصد الحصن للاطلاع عليه وتقويته بالعساكر والأقوات وآلات الحرب فنزل الغيث والثلج مدة شهرين ليلاً ونهاراً فمنعه . فلما زال ذلك سار في أربعة آلاف فارس ففتح حصوناً للفرنج منها حصن الأكمة ، فلما سمع السرداني الفرنجي بمجيء طغتكين وهو على حصار طرابلس توجه في ثلاثمائة فارس -فلما أشرف أوائل أصحابه على عسكر طغتكين انهزموا وخلوا ثقلهم ورحالهم ودوابهم للفرنج فغنموا وقووا به وزاد في تَجمُلِهم ووصل المسلمون إلى حمص على أقبح حال من التقطع ولم يقتل منهم أحد لأنه لم تجر حرب . وقصد السرداني إلى عرقة فلما نازلها طلب من كان بها الأمان فأمنهم على نفوسهم وتسلم الحصن فلما خرج من فيه قبض على إسرائيل وقال :لا أطلق عنه إلا بإطلاق فلان وهو أسير كان بدمشق من الفرنج منذ سبع سنين ففودي به وأطلقا معاً ، ولما وصل طغتكين إلى دمشق بعد الهزيمة أرسل إليه ملك القدس يقول له :لا تظن أنني أنقض الهدنة للذي تم عليك -من الهزيمة فالملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمورهم إلى الانتظام والاستقامة . وكان طغتكين خائفاً أن يقصد بعد هذه الكسرة فينال من بلده كل ما أراد .

ذكر صلح السنة والشيعة ببغداد

في هذه السنة في شعبان اصطلح عامة ش بغداد السنة والشيعة . وكان الشر منهم على طول لا الزمان

وقد اجتهد الخلفاء والسلاطَين والشحن في إصلاح الحال فتعذر عليهم ذلك إلى أن أذن الله تعالى فيه ، وكان بغير واسطة . وكان السبب في ذلك أن السلطان محمداً لما قتل ملك الغرب صدقة كما ذكرناه خاف الشيعة ببغداد أهل الكرج وغيرهم لأن صدقة كان يتشيع هو وأهل بيته فشنع أهل السنة عليهم بأنهم نالهم غم وهم لقتله ، فخاف الشيعة وأغضوا على سماع هذا ولم يزالوا خائفين إلى شعبان فلما لخل شعبان تجهز السنة لزيارة قبر مصعب بن الزبير وكانوا قد تركوا ذلك سنين كثيرة ومنعوا

منه لتنقطع الفتن الحادثة بسببه ، فلما تجهزوا للمسير اتفقوا على أن يجعلوا طريقهم في الكرخ فاظهروا ذلك فاتفق رأي أهل الكرخ على ترك معارضتهم . وأنهم لا يمنعونهم فصار السنة تسير أهل كل محلة منفردين ومعهم من الزينة والسلاح شيء كثير ، وجاء أهل باب المراتب ومعهم فيل قد عمل من خشب وعليه الرجال بالسلاح وقصدوا جميعهم الكرخ ليعبروا فيه فاستقبلهم أهله بالبخور والطيب والماء المبرد والسلاح الكثير وأظهروا بهم السرور وشيعوهم حتى خرجوا من المحلة ، وخرج الشيعة ليلة النصف منه إلى مشهد موسى بن جعفر وغيره فلم يعترضهم أحد من السنة ، فعجب الناس لذلك ولما عادوا من زيارة مصعب لقيهم أهل الكرخ بالفرح والسرور فاتفق أن أهل باب المراتب انكسر فيلهم عند قنطرة باب حرب فقرأ لهم قوم { ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل }(1) إلى آخر السورة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عاد منصور بن صدقة بن مزيد إلى باب السلطان فتقبله وأكرمه وكان قد هرب بعد قتل والده إلى الآن والتحق أخوه بدران بن صدقة بالأمير مودود الذي أقطعه السلطان الموصل فأكرمه وأحسن صحبته . وفيها في نيسان زادت دجلة زيادة عظيمة وتقطعت الطرق وغرقت الغلات الشتوية والصيفية وحدث غلاء عظيم بالعراق بلغت الكارة الدقيق الخشكار عشرة دنانير إمامية وعدم الخبز رأساً وأكل الناس التمر والباقلاء الأخضر؛ وأما أهل السواد فإنهم لم يأكلوا جميع شهر رمضان ونصف شوال سوى الحشيش والتوت .

وفيها في رجب عزل وزير الخليفة أبو المعالي هبة الله بن المطلب ووزر له أبو قاسم علي بن ابي نصر بن جهير .

وفيها في شعبان تزوج الخليفة المستنصر بالله بابنة

السلطان ملكشاه وهي أخت السلطان محمد وكان الذي خطب خطبة النكاح القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد السابوري الحنفي وكان المتولي لقبول العقد نظام الملك أحمد بن نظام الملك وزير السلطان بوكالة من الخليفة وكان الصداق مائة ألف دينار ونثرت الجواهر والدنانير وكان العقد بأصبهان .

(1) سورة النيل .

وفيها تولى مجاهد الدين بهروز شحنكية بغداد وكان سبب ذلك أن السلطان محمداً كان قبض على أبي القاسم الحسين بن عبد الواحد صاحب المخزن وعلي أبي الفرج بن رئيس الرؤساء واعتقلهم عنده ثم أطلقهم الآن وقرر عليهم مالا يحملونه إليه ، فأرسل مجاهد الدين بهروز لقبض المال وأمره السلطان بعمارة دار المملكة ففعل ذلك وعمَّر الدار وأحسن إلى الناس فلما قدم السلطان إلى بغداد ولاه شحنكية العراق جميعه وخلع على سعيد بن حميد العمري صاحب جيش صدقة وولاه الحلة السيفية وكان صارما حازماً ذا رأي وجَلدْ .

وفيها في شوال ملك الأمير سكمان القطبي صاحب خلاط مدينة ميافارقين بالأمان بعد أن حصرها وضيَّق على أهلها عدة شهور فعدمت الأقوات بها واشتد الجوع بأهلها فسلموها.

وفي هذه السنة في صفر قتل قاضي أصبهان عبيدالله بن علي الخطيبي بهمذان وكان قد تجرد في أمر الباطنية تجرداً عظيماً وصار يلبس درعاً حذراً منهم ويحتاط ويحترز فقصده إنسان عجمي يوم جمعة ودخل بينه وبين أصحابه فقتله ، وقتل صاعد بن محمد بن عبد الرحمن أبو العلاء قاضي نيسابور يوم عيد الفطر قتله باطني وقتل الباطني ومولده سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وسمع الحديث وكان حنفي المذهب .

وفي هذه السنة سار قفل عظيم من دمشق إلى مصر فاتى الخبر إلى ملك الفرنج فسار إليه وعارضه في البر وأخذ كل من فيه ولم يسلم منهم إلا القليل ومن سلم أخذه العرب . وفيها في فصح النصارى ثار جماعة من الباطنية في حصن شيزر على حين غفلة من أهله في مائة رجل فملكوه وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا بابه وصعدوا إلى القلعة فملكوها ، وكان أصحابها بنو منقذ قد نزلوا منها لمشاهدة عيد النصارى وكانوا قد أحسنوا إلى

هؤلاء الذين أفسدوا كل الإحسان ، فبادر أهل المدينة الباشورة فأصعدهم النساء في الحبال من الطاقات وصاروا معهم ، وأدركهم الأمراء بنو منقذ أصحاب الحصن فصعدوا إليهم فكبروا عليهم وقاتلوهم فانخذل الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب فلم يفلت منهم أحد ، وقتل من كان على مثل رأيهم في البلد .

وفيها وصل إلى المهدية ثلاثة نفر غرباء فكتبوا إلى أميرها يحص بن تميم يقولون

إنهم يعملون الكيمياء فأحضرهم عنده وأمرهم أن يعملوا شيئاً يراه من صناعتهم فقالوا نعمل النقرة فاحضر لهم ما طلبوا من آلة وغيرها ، وقعد معهم هو والشريف أبو الحسن وقائد جيشه اسمه إبراهيم ، وكانا يختصان به فلما رأى الكيماوية المكان خالياً من جمع ثاروا بهم فضرب أحدهم يحيى بن تميم على رأسه فوقعت السكين في عمامته فلم تصنع شيئاً ورفسه يحيى فألقاه على ظهره ، ودخل يحمي بابا وأغلقه على نفسه فضرب الثاني الشريف فقتله وأخذ القائد ابراهيم السيف فقاتل الكيماوية ، ووقع الصوت فدخل أصحاب الأمير يحص فقتلوا الكيماوية وكان زيهم زي أهل الأندلس فقتل جماعة من أهل البلد على مثل زيهم وقيل للأمير يحيى : إن هؤلاء رآهم بعض الناس عند المقدم بن خليفة . واتفق أن الأمير أبا الفتوح بن تميم أخا يحيى وصل تلك الساعة إلى القصر في أصحابه قد لبسوا السلاح فمنع من الدخول فثبت عند الأمير يحمي أن ذلك بوضع منهما ، فاحضر المقدم بن خليفة وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصاً لأنه قتل أباهم وأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته بلارة بنت القاسم بن تميم وهي ابنة عمه ووكل بهما في قصر زياد بين المهدية وسفاقس ، فبقي هناك إلى أن مات يحيى وملك بعده ابنه على سنة تسع وخمسمائة فسير أبا الفتوح وزوجته بلارة إلى ديار مصر في البحر فوصلا إلى إسكندرية على ما نذكره إن شاء الله . وفيها في المحرم قتل عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد أبو المحاسن الروياني الطبري الفقيه الشافعي مولده سنة . خمس عشرة وأربعمائة وكان حافظاً للمذهب ويقول لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من قلبي .

وفيها في جمادى الآخرة توفي الخطيب أبو زكرياء يحيى بن علي التبريزي الشيباني اللغوي صاحب

التصانيف المشهورة وله شعر ليس بالجيد . وفيها في رجب توفي السيد أبو هاشم زيد الحسني العلوي رئيس همذان وكان نافذ الحكم ماضي الأمر وكانت مدة رياسته لها سبعاً وأربعين سنة وجده لأمه الصاحب أبو القاسم بن عباد وكان عظيم المال جداً فمن ذلك أنه أخذ منه السلطان محمد في دفعة واحدة سبعمائة ألف دينار لم يبع لأجلها ملكاً ولا استدان ديناراً ، وأقام بعد ذلك بالسلطان محمد عدة شهور في جميع ما يريده وكان قليل المعروف . وفيها في ذي الحجة توفي أبو الفوارس الحسن بن علي الخازن الكاتب المشهور بجودة الخط وله شعر منه :

غنت الدنيا لطالبها واستراح الزاهد الفطن عرف الدنيا فلم يرها وسواه حظه الفتن كل ملك نال زخرفها حظه مما حوى كفن يقتني مالاً ويتركه في كلا الحالين مفتتن أملي كوفي على ثقة من لقاء الله مرتهن أكره الدنيا وكيف بها والذي تسخو به وسن لم تقدم قبلي على أحد فلماذا الهم والحزن

وقيل توفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة وقد ذكر هناك .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسمائة
ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت من الشام

في هذه السنة حادي عشر ذي الحجة ملك الفرنج طرابلس . وسبب ذلك أن طرابلس كانت قد صارت في حكم صاحب مصر ونائبه فيها والمدد يأتي منه ، وقد ذكرنا ذلك سنة إحدى وخمسمائة . قلما كان هذه السنة أول شعبان وصل أسطول كبير من بلد الفرنج في البحر ومقدمهم قمص كبير اسمه ريمند بن صنجيل ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والميرة فنزل على طرابلس وكان نازلاً عليها قبله السرداني ابن أخت صنجيل ، وليس بابن أخت بل هو هذا ريمند قمص آخر فجرت بينهما فتنة أدت إلى الشر والقتال فوصل طنكري صاحب أنطاكية إليها بمعونة للسرداني ووصل الملك بغدوين صاحب القدس في عسكره فاصلح بينهما ونزل الفرنج جميعهم على طرابلس ، وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها من أول شعبان وألصقوا أبراجهم بسورها ، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم وذلّت نفوسهم وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة؛ وكان سبب تأخره أنهم فرغوا منه ومن البحث عليه واختلفوا فيه أكثر من سنة وسار فردته الريح فتعذّر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وسد الفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف فهجموا على البلد ، وملكوه عنوة وقهراً يوم الاثنين لِإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة ونهبوا ما قيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحدّ ولا يحص ، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها فوصلوا إلى دمشق وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات وأخذت دفائنهم وذخائرهم من مكامنهم .

ذكر ملك الفرنج جبيل وبانياس

لما فرغ الفرنج من طرابلس سار طنكري صاحب أنطاكية إلى بانياس وحصرها وافتتحها وأمن أهلها ونزل مدينة جبيل وفيها فخر الملك بن عمار الذي كان صاحب طرابلس وكان القوت فيها قليلاً فقاتلها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة بالأمان وخرج فخر الملك بن عمار سالماً ووصل عقيب ملك طرابلس الأسطول المصري بالرجال والمال والغلال وغيرها ما يكفيهم سنة فوصل إلى صور بعد أخذها بثمانية أيام للقضاء النازل بأهلها وفرقت الغلال التي فيه والذخائر في الجهات المنفذة إليها صور وصيدا وبيروت . وأما فخر الملك بن عمار فإنه فقد شيزر فأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن علي بن منقذ الكناني واحترمه وسأله أن يقيم عنده فلم يفعل ، وسار إلى دمشق فأنزله طغتكين صاحبها وأجزل له في الحمل والعطية وأقطعه أعمال الزيداني وهو عمل كبير من أعمال دمشق وكان ذلك في المحرم سنة اثنتين وخمسمائة.

ذكر الحرب بين محمد خان وساغربك

في هذه السنة عاد ساغربك وجمع العساكر الكثيرة من الأتراك وغيرهم وقصد أعمال محمد خان بسمرقند وغيرها فأرسل محمد خان إلى سنجر يستنجده فسير إليه الجنود واجتمع معه أيضاً كثير من العساكر وسار إلى ساغربك فالتقوا بنواحي الخشب واقتتلوا فانهزم ساغربك وعساكره ، وأخذت السيوف منهم مأخذها وكثر الأسر فيهم والنهب ، فلما فرغوا من حربهم وأمن محمد خان من شر ساغربك عاد العسكري السنجري إلى خراسان فعبروا النهر إلى بلخ .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرم سير السلطان وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى قلعة الموت لقتال الحسن بن الصباحٍ ومن معه من الإسماعيلية فحصروهم

وهجم الشتاء عليهم فعادوا ولم يبلغوا منه غرضا . وفيها في ربيع الآخر قدم السلطان إلى بغداد وعاد عنها في شوال من السنة أيضاً . وفيها في شعبان توجه الوزير نظام الملك إلى الجامع فوثب به الباطنية فضربوه بالسكاكين وجرح في رقبته فبقي مريضاً مدة ثم برأ

وأخذ الباطني الذي جرحه فسُقي الخمر حتى سكر ، ثم سُئل أصحابه فاقر على جماعة بمسجد المأمونية فاخذوا وقتلوا . وفيها عزل وزير الخليفة وهو أبو المعالي بن المطلب ووزر بعده الزعيم أبو القاسم بن جهير فخرج ابن المطلب من دار الخليفة مستتراً هو أولاده واستجار بدار السلطان . وفيها جهز يحيى بن تميم صاحب إفريقية خمسة عشر شينياً وسيَّرها الى بلاد الروح فلقيها أسطول الروم وهو كبير فقاتلوهم وأخذوا ست قطع من شواني المسلمين ولم ينهزم بعد ذلك ليحيى جيش في البحر والبر وسيَّر ابنه أبا الفتوح إلى مدينة سفاقس والياً عليها فثار به أهلها فنهبوا قصره وهموا بقتله فلم يزل يحيى يعمل الحيلة عليهم حتى فرق كلمتهم وبدد شملهم وملك رقابهم فسجنهم وعفا عن دمائهم وذنوبهم. وفيها توفي الأمير إبراهيم ينال صاحب آمد وكان قبيح السيرة مشهوراً بالظلم فجلا كثير من أهلها لجوره وملك بعده ولده وكان أصلح حالا منه . وفيها في ثامن ذي القعدة ظهر في السماء كوكب من الشرق له ذؤابة ممتدة إلى القبلة وبقي يطلع إلى آخر ذي الحجة ثم غاب .

ثم دخلت سنة أربع وخمسمائة
ذكر ملك الفرنج مدينة صيدا

في هذه السنة في ربيع الآخر ملك الفرنجِ مدينة صيدا من ساحل الشام . وسبب ذلك أنه وصل في البحر إلى الشام ستون مركباً للفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحج البيت المقدس وليغزوا بزعمه المسلمين ، فاجتمع بهم بغدوين ملك القدس ، وتقررت القاعدة بينهم أن يقصدوا بلاد الاسلام فرحلوا من القدس ونزلوا مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر من هذه السنة وضايقوها براً وبحراً ، وكان الأسطول المصري مقيماً على صور فلم يقدر على إنجاد صيدا فعمل الفرنج برجاً من الخشب وأحكموه وجعلوا عليها ما يمنع النار عنه والحجارة وزحفوا به . فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت ، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا من ملكهم الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم ، ومن أراد المقام به عندهم أمنوه ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه وحلف لهم على ذلك ، فخرج الموالي وجماعة كثيرة من أعيان أهل البلد في العشرين من جُمادى الأولى إلى دمشق وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً ، ورحل بغدوين عنها إلى القدس ثم عاد إلى صيدا بعد مدة يسيرة فقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار فأفقرهم واستغرق أموالهم .

ذكر استيلاء المصريين على عسقلان

كانت عسقلان للعلويين المصريين ، ثم إن الخليفة الآمر بأحكام الله استعمل عليها إنساناً يعرف بشمس الخلافة فراسل بغدوين ملك الفرنج بالشام وهادنه وأهدى

إليه مالًا وعروضاً فامتنع به من أحكام المصريين عليه إلا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك ، فوصلت الأخبار بذلك إلى الآمر بأحكام الله صاحب مصر وإلى وزيره الأفضل أمير الجيوش فعظم الأمر عليهما وجهزا عسكراً وسيراه إلى عسقلان مع فائد كبير من قواده ، وأظهرا أنه يريد الغزاة وأنفذا إلى القائد سراً أن يقبض على شمس الخلافة إذا حضر عندهم ويقيم هو عوضه بعسقلان أميراً فسار العسكر فعرف شمس الخلافة الحال فامتنع من الحضور عند العسكر المصري ، وجاهر بالعصيان وأخرج من كان عنده من عسكر مصر خوفاً منهم فلما عرف الأفضل ذلك خاف أن يسلم عسقلان إلى الفرنج فأرسل إليه وطيب قلبه وسكنه وأقره على عمله وأعاد عليه أقطاعه بمصر ، ثم إن شمس الخلافة خاف أهل عسقلان فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً ولم يزل على هذه الحال إلى آخر سنة أربع وخمسمائة ، فأنكر الأمر أهل البلد فوثب به قوم من أعيانه وهو راكب فجرحوه فانهزم منهم إلى داره فتبعوه وقتلوه ونهبوا داره وجميع ما فيها ، ونهبوا بعض دور غيره من أرباب الأموال بهذه الحجة وأرسلوا إلى مصر بجلية الحال إلى الأمر والأفضل فسرَّا بذلك وأحسنا إلى الواصلين بالبشارة وأرسلا إليه والياً يقيم به ويستعمل مع أهل البلد الإحسان وحسن السيرة فتم ذلك وزال ما كانوا يخافونه .

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب وغيره

في هذه السنة جمع صاحب أنطاكية عساكره من الفرنج وحشد الفارس والراجل وسار نحو حصن الأثارب - وهو بالقرب من مدينة حلب بينهما ثلاثة فراسخ - وحصره ومنع عنه الميرة فضاق الأمر على من به من المسلمين فنقبوا من القلعة نقباً قصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه ، فلما فعلوا ذلك وقربوا من خيمته استأمن إليه صبي أرمني فعرفه الحال فاحتاط واحترز منهم وجدَّ في قتالهم حتى ملك الحصن

قهراً وعنوة ، وقتل من أهله ألفي رجل وسبى وأسر الباقين ثم سار إلى حصن زردنا فحصره ففتحه وفعل بأهله مثل الأثارب ، فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفاً من الفرنج وكذلك أهل بالس وقصد الفرنج البلدين فرأوهما وليس بهما أنيس فعادوا عنها . وسار عسكر من الفرنج إلى مدينة صيدا فطلب أهلها منهم الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد فعظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه ، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية

بالشام في الهدنة معهم فامتنع الفرنج من الاجابة إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار ، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار. وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلة وحصادها ثم إن مراكب أقلعت من ديار مصر فيها التجار ومعهم الأمتعة الكثيرة ، فوقع عليها مراكب الفرنج فأخذوها وغنموا ما مع التجار وأسروهم فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج ، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان إنفاذ العساكر للجهاد ، وسيّر من دار الخلافة منبراً إلى جامع السلطان فلما كان الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد فمنعهم حاجب الباب من الدخول ، فغلبوه على ذلك ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة وهجموا الى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة أيضاً ، فأرسل الخليفة إلى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه فتقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهز للجهاد ، وسيَّر ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيرون إلى قتال الفرنج وانقضت السنة وساروا في سنة خمس وخمسمائة وكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل نظام الملك أحمد من وزارة السلطان ووزر بعده الخطير محمد بن الحسين الميبذي . وفيها ورد رسول ملك الروم إلى السلطان يستنفره على الفرنج ويحثه على قتالهم ودفعهم عن البلاد وكان رسوله

قبل وصول أهل حلب وكان أهل حلب يقولون للسلطان : أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للِإسلام حتى قد أرسل إليك في جهادهم . وفيها في رمضان زفت ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة وزينت بغداد وغلقت وكان بها فرحة عظيمة لم يشاهد الناس مثلها . وفيها هبت بمصر ريح سوداء أظلمت بها الدنيا وأخذت بأنفاس الناس ولم يقدر أحد يفتح عينيه وفتحها لا يبصر يده . ونزل على الناس رمل ويئس الناس من الحياة وأيقنوا

بالهلاك ثم تجلى قليلًا وجماد إلى الصفرة وكان ذلك من أول وقت العصر إلى بعد المغرب. وفيها في المحرم توفي الكيا الهراس الطبري واسمه أبو الحسن علي ،بن محمد بن علي وكان من أعيان الفقهاء الشافعية أخذ الفقه عن إمام الحرمين الجويني ودرس بعده في النظامية ببغداد وتوفي بها ودفن عند تربة الشيخ أبي إسحاق ودرس بعده في النظامية الإِمام أبو بكر الشاشي . وفيها توفي أبو الحسين إدريس بن حمزة بن علي الرملي الفقيه الشافعي من أهل الرملة بفلسطين تفقه على أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي وعلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ودخل خراسان وولي التدريس بسمرقند فتوفي بها .

ثم دخلت سنة خمس وخمسمائة
ذكر مسير العسكر إلى قتال الفرنج

في هذه السنة اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير إلى قتال الفرنج فكانوا الأمير مودود صاحب الموصل والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر والأمير أيلبكي وزنكي ابنا برسق ولهما همذان وما جاورها والأمير أحمديل وله مراغة وكوتب الأمير أبو الهيجا صاحب إربل والأمير أيلغازي صاحب ماردين والأمراء البيكجية باللحاق بالملك مسعود ومودود ، فاجتمعوا ما عدا الأمير أيلغازي فإنه سير ولده أياز وأقام هو فلما اجتمعوا وساروا إلى بلد سنجار ففتحوا عدة حصون للفرنج وقتل من بها منهم وحصروا مدينة الرها مدة ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها. وكان سبب رحيلهم عنها أن الفرنج اجتمعت جميعها فارسها وراجلها وساروا إلى الفرات ليعبروها ليمنعوا الرها من المسلمين ، فلما وصلوا إلى الفرات بلغهم كثرة المسلمين فلم يقدموا عليه وأقاموا على الفرات فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرها إلى حرّان ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ويقاتلوهم فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة والذخائر إلى الرها فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن كانوا قليلي الميرة وقد أشرفوا على أن يؤخذوا؛ وأخذوا كل من فيه عجز وضعف وفقر وعادوا إلى الفرات فعبروه الى الجانب الشامي وطرقوا أعمال حلب فافسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا خلقاً كثيراً . وكان سبب ذلك أن الفرنج لما عبروا إلى الجزيرة خرج الملك رضوان صاحب خلب إلى ما أخذه الفرنج من أعمالها فاستعاد بعضه ونهب منهم وقتل ، فلما عادوا وعبروا الفرات فعلوا بأعماله ما فعلوا وأما العسكر السلطاني فإنه لما سمع بعود الفرنج وعبورهم الفرات رحلوا إلى الرفا وحصروها فرأوا أمراً محكماً قد قست نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم وبكثرة

المقاتلين عنهم ولم يجدوا فها مطمعاً فرحلوا عنها،

وعبروا الفرات فحصروا قلعة تل باشر خمسة وأربعين يوماً ورحلوا عنها ولم يبلغوا غرضاً ووصلوا إلى حلب فاغلق الملك رضوان أبواب البلد ولم يجتمع بهم . ثم مرض هناك الأمير سكمان القطبي فعاد مريضاً فتوفي في بالس فجعله أصحابه في تابوت وحملوه عائدين إلى بلاده فقصدهم أيلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم فجعلوا تابوته فيِ القلب وقاتلوا بين يديه فانهزم أيلغازي وغنموا ما معه ساروا إلى بلادهم .

ولما غلق الملك رضوان أبواب حلب ولم يجتمع بالعساكر السلطانية رحلوا إلى معرة النعمان ، واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق ونزل على الأمير فودود فاطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سراً وكانوا قد نكلوا عن قتال المسلمين فلم يتم ذلك وتفرقت العساكر، وكان سبب تفرقهم أن الأمر برسق بن برسق الذي هو أكبر الأمراء كان به نقرس فهو يحمل في محفة ، ومات سكمان القطبي كما ذكرنا وأراد الأمير أحمديل صاحب مراغة العود ليطلب من السلطان أن يقطعه ما كان لسكمان من البلاد ، وأتابك طغتكين صاحب دمشق خاف الأمراء على نفسه فلم ينصحهم إلا أنه حصل بينه وبين مودود صاحب الموصل مودة وصداقة ، فتفرقوا لهذه الأسباب وبقي مودود وطغتكين بالمعرة فساروا منها ونزلوا على نهر العاصي ولما سمع الفرنج بتفرق عساكر الإسلام طمعوا وكانوا قد اجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين وساروا إلى فامية فسمع بهم سلطان بن منقذ صاحب شيزر فسار إلى مودود وطغتكين وهوّن عليهما أمر الفرنج وحرضهما على الجهاد فرحلوا إلى شيزر ونزلوا عليها ونزل الفرنج بالقرب منهم فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة ولزوهم بالقتال والفرنج يحفظون نفوسهم ولا يعطون مصافاً ، فلما رأوا قوة

المسلمين عادوا إلى فامية وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوه في ساقتهم وعادوا إلى شيزر في ربيع الأول .

ذكر حصر الفرنج مدينة صور

لما تفرقت العساكر اجتمعت الفرنج على قصد مدينة صور وحصرها ، فساروا إليها مع الملك بغدوين صاحب القدس وحشدوا وجمعوا ونازلوها وحصروها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب علو البرج

سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل ونصبوا عليها المجانيق وألصقوا أحدها إلى سور البلد وأخلوه من الرجال ، وكانت صور للآمر بأحكام الله العلوي ونائبه بها عز الملك الأعز فاحضر أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم فقام شيخ صن أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها ، وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام ومع كل رجل منهم حزمة حطب فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا البرج الملتصق بالمدينة ، فألقى الحطب من جهاته وألقى فيه النار ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج بإطفاء النار ويتخلصوا فرماهم بجرب كان قد أعدّها مملوءة من العذرة فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث فتمكنت النار منه فهلك كل من به إلا القليل . وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب ثم أخذ سلال العنب الكبار وترك فيها الحطب الذي قد سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت ورماهم بسبعين سلة واحرق البرجين الآخرين . ثم إن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا زحفوا إليهم ولينخسف برج إن عملوه وسيروه إليهم فاستأمن نفر من المسلمين إلى الفرنج . وأعلموهم بما عملوه فحذروا منها. وأرسل أهل البلد إلى أتابك طغتكين صاحب دمشق يستنجدونه ويطلبونه ليسلموا البلد إليه فسار في . عساكره إلى نواحي بانياس وسير إليهم نجدة مائتي فارس فدخلوا البلد فامتنع من فيه بهم ، واشتدَّ قتال الفرنج خوفاً من اتصال النجدات ففني نشاب الأتراك فقاتلوا بالخشب وفني النفط فظفروا بسرداب تحت الأرض فيه نفط لا يعلم من خزنه ثم إن عز الملك صاحب صور أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال ويقصدهم ليملك البلد فأرسل طغتكين طائراً فيه رقعة ليعلمه وصول المال ويأمره أن يقيم مركباً يمكان ذكره

لتجيء الرجال إليه ، فسقط الطائر على مركب الفرنج فأخذه رجلان مسلم وإفرنجي فقال الافرنجي نطلقه لعلِ فيه فرجاً لهم فلم يمكنه المسلم وحمله إلى الملكَ بغدوين فلما وقف عليه سيّر مركباَ إلى المكان الذي ذكر طغتكين وفيه جماعة من المسلمين الذين استأمنوا إليه من صور فوصل إليهم العسكر فكلموهم بالعربية فلم ينكروهم وركبوا معهم فأخذوهم أسرى وحملوهم إلى الفرنج فقتلوهم ، وطمعوا في أهل صور فكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق وهو للفرنج فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه ، وعاد إلى الفرنج الذين على صور وكان يقطع الميرة عنهم في البر فأحضروها في البحر وخندقوا عليهم لم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا وأغار

على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحل ، وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر والفرنج يلازمون قتالهم وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات ، فخاف الفرنج ان طغتكين يستولي على غلات بلادهم فساروا عن البلد عاشر شوال إلى عكا وعاد عسكر طغتكين إليه ة وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها ثم أصلحوا ما تشعث من سورها وخندقها وكان الفرنج قد طموه .

ذكر انهزام الفرنج بالأندلس

في هذه السنة خرج أذفونش الفرنجي صاحب طليطلة بالأندلس إلى بلاد الإسلام بها يطلب ملكها والاستيلاء عليها وجمع وحشد فاكثر ، وكان قد قوي طمعه فيها بسبب موت أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فسمع أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الخبر فسار! ليه في عساكرها وجموعه فلقيه فاقتتلوا واشتد القتال ،وكان الظفر للمسلمين وانهزم الفرنج وقتلوا قتلاً ذريعاً وأسر منهم بشر كثير وسبى منهم وغنم من أموالهم ما يخرج من الإحصاء فخافه الفرنج بعد ذلك وامتنعوا من قصد بلاده وذل أذفونش حينئذٍ وعلم أن في البلاد حامياً لها وذابا عنها.

وفي هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الإمام المشهور .

في هذه السنة في المحرم سار مودود صاحب الموصل إلى الرها فنزل عليها ورعى عسكره زروعها ورحل عنها إلى سروج وفعل بها كذلك وأهمل الفرنج ولم يحترز منهم فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم وكانت دواب العسكر منتشرة في المرعى ، فاخذ الفرنج كثيراً منها وقتلوا كثيراً من العسكر فلما تأهب المسلمون للقائه عاد عنهم إلى سروج . وفيها رحل السلطان محمد من بغداد وكان مقامه هذه المرة خمسة أشهر . فلما وصل إلى أصبهان قبض على زين الملك أبي سعد القمي وسلمه إلى الأمير كاميار لعداوة بينهما ، فلما وصل إلى الري أركبه كاميار على دابة بمركب ذهب وأظهر أن السلطان خلع عليه على مال قرره عليه فحصل بذلك مالاً .كثيراً من أهل القمي ثم صلبه ، وكان سبب قبضه أنه كان يكثر الطعن على الخليفة والسلطان .

وفيها كان ببغداد رجل مغربي يعمل الكيمياء بزعمه اسمه أبو علي فحمل إلى دار الخلافة وكان آخر العهد به . وفيها ورد إلى بغداد يوسف بن أيوب الهمداني الواعظ ، وكان من الزهاد العابدين فوعظ الناس بها فقام إليه رجل متفقه يقال له ابن السقاء فآذاه في مسالة وعاوده فقال له : اجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر ولعلك تموت على غير دين الإسلام فاتفق بعد مُدَيْدَة أن ابن السقاء خرج إلى بلاد الروم وتنصر . وفيها في ذي القعدة سمع ببغداد صوت هدة عظيمة ولم يكن بالسماء غيم حتى يظن أنه صوت رعد ولم يعلم أحد أي صوت كان . وفيها توفي بسيل الأرمني صاحب الدروب ببلاد ابن لاون فسار طنكري صاحب أنطاكية أول جمادى الآخرة إلى بلاده طمعاً في أن يملكها فمرض في طريقه فعاد إلى أنطاكية فمات ثامن جمادى الآخرة وملكها بعده ابن أخته سرخالة واستقام الأمر فيها بعد أن جرى بين الفرنج

خلف بسببه فأصلح بينهم القسوس والرهبان . وفيها

توفي قراجة صاحب حمص وكان ظالماً وقام ولده قرجان مكانه وكان مثله في قبح السيرة . وفي هذه السنة توفي المعمر بن علي أبو سعد بن أبي عمامة الواعظ البغدادي ومولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة وكان له خاطر حاد ومجون حسن وكان الغالب على وعظه أخبار الصالحين . وتوفي أحمد بن الفرج بن عمر الدينوري والد شهدة وكان يروي عن أبي يعلى بن الفراء وابن المأمون وابن المهتدي وابن النقور وغيرهم وكان حسن السيرة متزهداً . وتوفي أبو العلاء صاعد بن منصور بن اسماعيل بن صاعد الخطيب النيسابوري ، وكان من أعيان الفقهاء وولي قضاء خوارزم وكان يروي الحديث .

ثم دخلت سنة سبع وخمسمائة
ذكر قتال الفرنج وانهزامهم وقتل مودود

في هذه السنة في المحرم اجتمع المسلمون وفيهم الأمير مودود بن التونتكين صاحب الموصل ، وتميرك صاحب سنجار ، والأمير أياز بن أيلغازي وطغتكين صاحب دمشق . وكان سبب اجتماع المسلمين أن ملك الفرنج بغدوين تابع الغارات على بلد دمشق ونهبه وخربه أواخر سنة ست وخمسمائة وانقطعت المواد عن دمشق فغلت الأسعار فيها وقلت الأقوات فأرسل طغتكين صاحبها إلى الأمير مودود يشرح له الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه فجمع عسكراً وسار فعبر الفرات آخر ذي القعدة سنة ست وخمسمائة ، فخافه الفرنج وسمع طغتكين خبره فسار إليه ولقيه بسلمية واتفق رأيهم على قصد بغدوين ملك القدس فساروا إلى الأردن فنزل المسلمون عند الأقحوانة ، ونزل الفرنج مع ملكهم بغدوين وجوسلين صاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين والفرسان المشهورين ودخلوا بلاد الفرنج مع مودود وجمع الفرنج فالتقوا عند طبرية ثالث عشر المحرم واشتد القتال وصبر الفريقان ، ثم إن الفرنج انهزموا وكثر القتل فيهم والأسر. وممن أسر ملكهم بغدوين فلم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ، ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية فقويت نفوسهم بهم وعاودوا الحرب فأحاط بهم المسلمون من كل ناحية وصعد الفرنج إلى جبل غرب طبرية فأقاموا به ستة وعشرين يوماً والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ، ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون إلى قتالهم فلم يخرج منهم أحد فسار المسلمون إلى بيسان ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا إلى القدس وخربوها ، وقتلوا من ظفروا به من النصارى وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم فعادوا

ونزل بمرج

الصفر الأمير مودود وأذنَ للعساكر في العود والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة وبقي في خواصه ، ودخل دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول ليقيم عند طغتكين إلى الربيع ، فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الاول ليصلي فيه وطغتكين ، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني وأخذ رأسه فلم يعرفه أحد فأحرق . وكان صائماً فحمل الى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال :لا لقيت الله إلا صائماً فمات من يومه رحمه الله فقيل إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه ، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله ؛ وكان خيراً عادلاً كثير الخير

حدثني والدي قال : كتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً من فضوله إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على اللهّ أن يبيدها . ولما قتل تسلم تميرك صاحب سنجار ما معه من الخزائن وحملها إلى السلطان ودفن مودود بدمشق في تربة دقاق صاحبها ، وحمل بعد ذلك إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة ثم حمل إلى أصبهان .

ذكر الخلف بين السلطان سنجر ومحمد خان والصلح بينهما

في هذه السنة كثر الحديث عند سنجر أن محمد خان بن سليمان بن داود قد مدَ يده إلى أموال الرعايا وظلمهم ظلماً كثيراً وأنه خرب البلاد بظلمه وشرّه وأنه قد صار استخف بأوامر سنجر ولا يلتفت إلى شيء منها فتجهز سنجر وجمع عساكره وسار يريد قصده بما وراء النهر ، فخاف محمد خان فأرسل إلى الأمير قماج وهو أكبر أمير مع سنجر يسأله أن يصلح الحال بينه وبين سنجر وأرسل أيضاً إلى خوارزمشاه بمثل ذلك ، وسألهما في إرضاء السلطان عنه واعترف بأنه أخطأ فأجاب سنجر إلى صلحه

علىَ شرط أن يحضر عنده ويطأ بساطه ، فأرسل محمد خان يذكر خوفه لسوء صنيعه ولكنه يحضر الخدمة ويخدم السلطان وبينهما نهر جيحون ثم يعاود بعد ذلك الحضور عنده والدخول إليه فحسنوا الاجابة إلى ذلك والاشتغال بغيره فامتنع ثم أجاب وكان سنجر على شاطىء جيحون من الجانب الغربي وجاء محمد خان إلى الجانب الشرقي فترجل وقبَّل الأرض وسنجر راكب وجماد كل واحد منهما إلى خيامه ورجعوا إلى بلادهم وسكنت الفتنة بينهما.

في هذه السنة سار قفل عظيم من دمشق إلى مصر فأتى الخبر الى بغدوين ملك الفرنج فسار إليه وعارضه في البر فأخذهم أجمعين ولم ينجُ منهم إلا القليل ومن سلم أخذه العرب .

وفي هذه السنة توفي الوزير أبو القاسم علي بن محمد بن جهير وزير الخليفة المستظهر باللّه ووزر يعده الربيب أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان .

وفيها توفي الملك رضوان بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان صاحب حلب وقام بعده بحلب ابنه ألب أرسلان الأخرس وعمره ست عشرة سنة ، وكانت أمور رضوان غير محمودة قتل أخويه أبا طالب وبهرام وكان يستعين بالباطنية في كثير من أموره لقلة دينه . ولما ملك الأخرس استولى على الأمور لؤلؤ الخادم ولم يكن للأخرس معه إلا اسم السلطنة ومعناه للؤلؤ ، ولم يكن ألب أرسلان أخرس وإنما في لسانه حبسة وتمتمة وأمه بنت باغيسيان الذي كان صاحب أنطاكية . وقتل الأخرس أخوين له أحدهما اسمه ملكشاه وهو من أبيه وأمه واسم الآخر مباركشاه وهو من أبيه وكان أبوه فعل مثله ، فلما توفي قتل ولداه مكافأة لما اعتمده مع أخويه وكان الباطنية قد كثروا بحلب في أيامه حتى خافهم ابن بديع رئيسها وأعيان أهلها، فلما توفي قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والإيقاع بهم فأمره بذلك فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصائغ وعلى جميع أصحابه فقتل أبا طاهر وجماعة من أعيانهم وأخذ أموال الباقين وأطلقهم فمنهم من قصد الفرنج وتفرقوا في البلاد .

وفي هذه السنة توفي ببغداد أبو بكر أحمد بن علي بن

بدران الحلواني الزاهد منتصف جُمادى الأولى روى الحديث عن القاضي وأبي الطيب الطبري وأبي محمد الجوهري وأبي طالب العشاري وغيرهم وروى عنه خلق كثير ، ومن آخرهم أبو الفضل عبدالله بن الطوسي خطيب الموصل وإسماعيل بن احمد بن الحسين بن علي أبو علي بن أبي بكر البيهقي الإمام ابن الإمام ومولده سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وتوفي بمدينة بيهق ولوالده تصانيف كثيرة مشهورة وشجاع بن أبي شجاع فارس بن الحسين بن فارس أبو غالب الذهلي الحافظ ومولده سنة ثلاثين وأربعمائة وروى عن أبيه وأبي

القاسم وابن المهتدي والجوهري وغيرهم والأديب أبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردي الشاعر المشهور وله ديوان حسن ومن شعره :

تَنَتهرَ لي دَهري ولمْ يَدْرِ أنني أعزُّ وأحداثُ الزمانِ تهونْ

وظل يُريني الخطبَ كيفَ اعتداؤه وبت أريهِ الصبرَ كيف يكونْ

وله أيضاً :

ركبتُ طرفي فأدرى دمعه أسفاً عند انصرافي منهم مضمر الياس

وقال حتَّامَ تؤذيني فإن سنت حوائج لك فاركبني إلى الناس

وكانت وفاته باصبهان وهو من ولد عنبسة بن أبي سفيان بن حرب الأموي .

وتوفي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي الإمام الفقيه الشافعي في شوال ومولده سنة سبع وعشرين وأربعمائة سمع أبا بكر الخطيب وأبا يعلى بن الفراء وغيرهم وتفقه على أبي عبد الله محمد بن الكازروني بديار بكر وعلى أبي اسحاق الشيرازي ببغداد وعلى أبي نصر بن الصباغ وفيها توفي أبو نصر المؤتمن بن أحمد بن الحسن الساجي الحافظ المقدسي ومولده سنة خمس وأربعين وأربعمائة وكان مكثراً من الحديث وتفقه على أبي اسحاق وكان ثقة .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسمائة

ذكر مسير آقسنقر البرسقي إلى الشام لحرب الفرنج

في هذه السنة سيَّر السلطان محمد الأمير آقسنقر البرِسقي إلى الموصل وأعمالها والياً عليها لما بلغه قتل مودود وسيَّر معه ولده الملك مسعوداً في جيش كثيف وأمره بقتال الفرنج ، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته فوصل إلى الموصل واتصلت به عساكرها ، وفيهم عماد الدين زنكي بن آقسنقر الذي ملك هو وأولاده الموصل بعد ذلك ، وكان له الشجاعة في الغاية واتصل به أيضاً تميرك صاحب سنجار وغيرهما فسار البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فسلمها إليه نائب مودود بها ، وسار معه إلى ماردين فنازلها البرسقي حتى أذعن له أيلغازي صاحبها وسيّر معه عسكراً مع ولده أياز فسار عنه البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فنازلها في ذي الحجة وقاتلها وصبر له الفرنج وأصابوا من بعض المسلمين غزة فأخذوا منهم تسعة رجال وصلبوهم على سورها ، فاشتد القتال حينئذ وحمى المسلمون وقاتلوا فقتلوا من الفرنج خمسين فارساً من أعيانهم وأقام عليها شهرين وأياماً وضاقت الميرة على المسلمين فرحلوا من الرها إلى سميساط بعد أن خربوا بلد الرها وبلد سروج وبلد سميساط ، وأطاعه صاحب مرعش على ما نذكره ثم عاد إلى شحنان فقبض على أياز بن أيلغازي حيث لم يحضر أبوه ونهب سواد ماردين .

ذكر طاعة صاحب مرعش وغيرها البرسقي

في هذه السنة توفي بعض كنود الفرنج ويعرف بكواسيل وهو صاحب مرعش وكيسوم ورعبان وغيرها ، فاستولت زوجته على المملكة وتحصنت من الفرنج وأحسنت الى الأجناد وراسلت آقسنقر البرسقي وهو على الرها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه ، فسير اليها الأمير سنقر دزدار صاحب الخابور فلما وصل اليها أكرمته وحملت إِليه مالاً كثيراً وبينما هو عندها إذ جاء جمع من

الفرنج فواقعوا أصحابه وهم نحو مائة

فارس واقتتلوا قتالاً شديداً طفر فيه المسلمون بم الفرنج وقتلوا منهم أكثرهم وعاد سنقر دزدار وقد أصحبته الهدايا للملك مسعود والبرسقي وأذعنت بالطاعة ولما عرف الفرنج ذلك عاد كثير ممن عندها إلى أنطاكية .

ذكر الحرب بين البرسقي وأيلغازي وأسر أيلغازي

لما قبض البرسقي على أياز بن أيلغازي سار إلى حصن كيفا وصاحبها الأمير ركن الدولة داود ابن أخيه سقمان فاستنجده فسار معه في عسكره وأحضر خلقاً كثيراً من التركمان ، وسار إلى البرسقي فلقيه أواخر السنة واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه فانهزم البرسقي وعسكره وخلص أياز بن أيلغازي من الأسر ، فأرسل السلطان إليه يتهدده فخافه وسار إلى الشام إلى حميه طغتكين صاحب دمشق فأقام عنده أياماً وكان طغتكين أيضاً قد استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود فاتفقا على الامتناع والالتجاء الى الفرنج والاحتماء بهم ، فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه فحضر عندهما على بحيرة قدس عند حمص وجددوا العهود وعاد إلى أنطاكية وعاد طغتكين إلى دمشق وسار أيلغازي إلى الرستن على عزم قصد ديار بكر وجمع التركمان والعود، فنزل بالرستن ليستريح فقصده الأمير قيرخان بن قراجة صاحب حمص وقد تفرق عن أيلغازي أصحابه . فظفر به قرجان وأسره ومعه جماعة من خواصه ، وأرسل إلى السلطان يعرفه ذلك ويسأله تعجيل إنفاذ العساكر لئلا يغلبه طغتكين على أيلغازي . ولما بلغ طغتكين الخبر عاد إلى . حمص وأرسل في إطلاقه فامتنع قرجان وحلف إن لم يعد طغتكين لنقتلنَ أيلغازي ، فأرسل أيلغازي إلى طغتكين أن الملاججة تؤذيني وتسفك دمي والمصلحة عودك إلى دمشق فعاد وانتظر قرجان وصول العساكر السلطانية فتأخرت عنه فخاف أن ينخدع أصحابه لطغتكين ويسلموا إليه حمص ، فعدل إلى الصلح مع أيلغازي على أن يطلقه

ويأخذ ابنه أياز رهينة ويصاهره ويمنعه من طغتكين وغيره ، فأجابه إلى ذلك فأطلقه وتحالفا وسلم إليه ابنه أياز ، وسار عن حمص إلى حلب وجمع التركمان وعاد إلى حمص وطالب بولده أياز وحصر قرجان إلى أن وصلت العساكر السلطانية فعاد أيلغازي على ما نذكره .

ذكر وفاة علاء الدولة بن سبكتكين وملك ابنه وما كان منه مع السلطان سنجر

في هذه السنة في شوال توفي الملك علاء الدولة أبو سعد مسعود بن أبي المظفر

إبراهيم بن أبي سعد مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزة بها، وملك بعده ابنه أرسلانشاه وأمه سلجوقية وهي أخت السلطان ألب أرسلان بن داود . فقبض على إخوته وسجنهم ، وهرب أخ له اسمه بهرام إلى خراسان فوصل إلى السلطان سنجر بن ملكشاه ، فأرسل إلى أرسلانشاه في معناه فلم يسمع منه ولا أصغى إلى قوله فتجهز سنجر للمسير إلى غزنة وإقامة بهرامشاه في الملك فأرسل أرسلانشاه إلى السلطان محمد يشكو من أخيه سنجر، فأرسل السلطان إلى أخيه يأمره بمصالحة أرسلانشاه وترك التعرض له وقال للرسول : إن رأيت أخي وقد قصدهم وسار نحوهم أو قارب أن يسير فلا تمنعه ولا تبلغه الرسالة ، فإن ذلك يفت في عضده ويوهنه ولا يعود ولأن يملك أخي الدنيا أحب إلىَّ . فوصل الرسول إلى سنجر وقد جهز العساكر إلى غزنة وجعل على مقدمته الأمير أنز مقدم عسكره ، ومعه الملك بهرامشاه فساروا حتى بلغوا بست واتصل بهم فيها أبو الفضل نصر بن خلف صاحب سجستان ، وسمع أرسلانشاه الخبر فسير جيشاً كثيفاً فهزماه ونهباه وعاد من سلم إلى غزنة على أسوأ حال فخضع حينئذ أرسلانشاه وأرسل إلى الأمير أنز يضمن له الأموال الكثيرة ليعود عنه ويحسن للملك سنجر العود عنه ، فلم يفعل ، وتجهز السلطان سنجر بعد أنر للمسير بنفسه فأرسل إليه أرسلانشاهُ امرأةَ عمه نصر تسأله الصفح والعود عن قصده وهي أخت الملك سنجر من السلطان بركيارق .

وكان علاء الدولة أبو سعد قد قتل زوجها ومنعها من الخروج عن غزنة وتزوجها ، فسيرها الآن أرسلانشاه فلما وصلت إلى أخيه أوصلت ما معها من الأموال والهدايا وى ان معها مائتا ألف دينار غير ذلك ، وطلب من سنجر أن يسلم أخاه بهرام إليه . وكانت موغرة الصدر من

أرسلانشاه ، فهونت أمره على سنخر وأطمعته في البلاد وسهلت الأمر عليه وذكرت له ما فعل بإخوته وكان قتل بعضاً وكحل بعضاً من غير خروج منهم عن الطاعة ، فسار الملك سنجر فلما وصل إلى بست أرسل خادماً من خواصه إلى أرسلانشاه في رسالة فقبض عليه في بعض القلاع فسار حينئذ سنجر مجدّاً فلما سمع بقربه منه أطلق الرسول ، ووصل سنجر إلى غزنة ووقع بينهما المصاف على فرسخ من غزنة بصحراء شهرأباذ وكان أرسلانشاه في ثلاثين ألف فارس وخلق كثير من الرجالة ومعه مائة وعشرون فيلاً على كل فيل أربعة نفر فحملت الفيلة على القلب وفيه سنجر

فكان من فيه ينهزمون فقال سنجر لغلمانه الأتراك : لترموها بالنشاب ، فتقد ثلاثة آلاف غلام فرموا الفيلة رشقاً واحداً جميعاً فقتلوا منها عدة ، فعدلت الفيلة عن القلب إلى الميسرة وبها أبو الفضل صاحب سجستان وجالت عليهم فضعف من في الميسرة فشجعهم أبو الفضل وخوفهم من الهزيمة مع بعد ديارهم وترجّل عن فرسه بنفسه وقصد كبير الفيلة ومتقدمها ودخل تحتها فشق بطنها وقتل فيلين آخرين .

ورأى الأمير أنر وهو في الميمنة ما في الميسرة من الحرب فخاف عليها فحمل من وراء عسكر غزنة وقصد الميسرة واختلط بهم وأعانهم فكانت الهزيمة على الغزنوية وكان ركاب الفيلة قد شدوا أنفسهم عليها بالسلاسل فلما عضهم الحرب وعمل فيهم السيف ألقوا أنفسهم فبقوا معلقين عليها، ودخل السلطان سنجر غزنة في العشرين من شوال سنة عشر وخمسمائة ومعه بهرامشاه . فأما القلعة الكبيرة المشتملة على الأموال وبينها وبين البلد تسعة فراسخ وهي عظيمة لا مطمع فيها ولا طريق عليها . وكان أرسلانشاه قد سجن فيها أخاه طاهراً الخازن وهو صاحب بهرامشاه واعتقل بها أيضاً زوجة بهرامشاه فلما انهزم أرسلانشاه استمال أخوه طاهر المستحفظ بها فبذل له وللأجناد الزيادات فسلموا القلعة إلى الملك سنجر . وأما قلعة البلد فإن أرسلانشاه كان اعتقل بها رسول سنجر فلما أطلقه بقي غلمانه بها فسلموا القلعة أيضاً بغير قتال .

وكان قد تقرر بين بهرامشاه وبين سنجر أن يجلس بهرام على سرير جده محمود بن سبكتكين وحده وأن تكون الخطبة بغزنة للخليفة وللسلطان محمد وللملك سنجر وبعدهم لبهرامشاه ، فلما دخلوا غزنة كان سنجر راكباً وبهرامشاه بين يديه راجلاً حق جاء السرير فصعد بهرامشاه فجلس عليه ورجع سنجر ، وكان يخطب له

بالملك ولبهرامشاه بالسلطان على عادة آبائه فكان هذا من أعجب ما يسمع به ، وحصل لأصحاب سنجر من الأموال ما لا يُحدُّ ولا يُحصى من السلطان والرعايا . وكان في دور لملوكها عدة دور على حيطانها ألواح الفضة وسواقي المياه إلى البساتين من الفضة أيضاً فقلع من ذلك أكثره ونهب . فلما سمع سنجر ما يفعل منع عنه بجهده وصلب جماعة حتى كف الناس وفي جملة ما حصل للملك سنجر خمسة تيجان قيمة أحدها يزيد على الفي ألف دينار ، وألف دينار وألف وثلاثمائة قطعة مصاغ مرصعة ، وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة . وأقام بغزنة أربعين يوماً حتى استقر بهرامشاه وعاد نحو خراسان .

ولم يخطب بغزنةَ لسلجوقي قبل هذا الوقت حتى إن السلطان ملكشاه مع تمكنه وكثرة ملكه لم يطمع فيه ، وكان كلما رام ذلك منع منه نظام الملك وأما أرسلانشاه فإنه لما انهزم قصد هندوستان واجتمع عليه أصحابه فقويت شوكته فلما عاد سنجر إلى خراسان توجه إلى غزنة فلما عرف بهرامشاه قصده أياه توجه إلى باميان وأرسل إلى الملك سنجر يعلمه الحال فأرسل إليه عسكراً وأقام أرسلانشاه بغزنة شهراً واحداً وسار يطلب أخاه . بهرامشاه فبلغه وصول عسكر سنجر فانهزم بغير قتال للخوف الذي قد باشر قلوب اصحابه ولحق بجبال أوغنان فسار أخوه بهرامشاه . وعسكر سنجر في أثره وأخربوا البلاد التي هو فيها وأرسلوا إلى، أهلها يتهددونهم فسلموه بعد المضايقة ، فأخذه متقدم جيش الملك سنجر وأراد حمله الى صاحبه فخاف بهرامشاه من ذلك فبذل له مالاً فسلمه إليه فخنقه ودفنه بتربة أبيه بغزنة وكان عمره سبعاً وعشرين سنة ، وكان أحسن إخوته صورة . وكان قتله في جمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وإنما ذكرناه ههنا لتتصل الحادثة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في جمادى الآخرة كانت زلزلة شديدة بديار الجزيرة والشام وغيرها فخربت كثيراً من الرها وحران وسميساط وبالس وغيرها وهلك خلق كثير تحت الهدم . وفيها قتل تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان صاحب حلب قتله غلمانه بقلعة حلب وأقاموا بعده أخاه سلطانشاه بن رضوان وكان المستولي عليه لؤلؤاً الخادم. وفيها توفي الشريف النسيب أبو القاسم علي بن ابراهيم بن العباس الحسيني في ربيع الآخر بدمشق .

ثم دخلت سنة تسع وخمسمائة
ذكر انهزام عسكر السلطان من الفرنج

قد ذكرنا ما كان من عصيان أيلغازي وطغتكين على السلطان وقوة الفرنج فلما اتصل ذلك بالسلطان محمد جهز عسكراً كثيراً ، وجعل مقدمهم الأمير برسق بن برسق صاحب همذان ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي ، وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بالبداءة بقتل أيلغازي وطغتكين فإذا فّرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحصروا بلادهم فساروا في رمضان من سنة ثَمَان وخمسمائة ، وكان عسكراً كثير العدة وعبروا الفرات آخر السنة عند الرقة فلما قاربوا حلب راسلوا . المتولي لأمرها لؤلؤاً الخادم ومقدم عسكرها المعروف بشمس الخواص يأمرونهما بتسليم حلب وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك فغالطا في الجواب ، وأرسلا إلى أيلغازي وطغتكين يستنجَدانهما فسارا إليهم في ألفي فارس ودخلا حلب فامتنع من بها حينئذ عن عسكر السلطان وأظهروا العصيان ، فسار الأمير برسق بن برسق إلى مدينة حماة وهي في طاعة طغتكين وبها ثقله فحصرها وفتحها عنوة ونهبها ثلاثة أيام وسلمها إلى الأمير قرجان صاحب حمص ، وكان السلطان قد أمر أن يسلم إليهِ كل بلد يفتحونه فلما رأى الأمراء بذلك فشلوا وضعفت نياتهم في القتال بحيث تؤخذ البلاد وتسلم إلى قرجان فلما سلموا حماة ى إلى قرجان سلم إليهم أياز بن أيلغازي ، وكان قد سار أيلغازي وطغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية واستجاروا بصاحبها روجيل وسألوه أن يساعدهم على حفظ مدينة حماة ، فلما بلغهم فتحها ووصل إليهم بأنطاكية- بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من شياطين الفرنج اتفق رأيهم على ترك اللقاء لكثرة المسلمين وقالوا : إنهم عند هجوم الشتاء يتفرقون ، واجتمعوا بقلعة أفامية وأقاموا نحو شهرين ، فلما انتصف أيلول ورأوا عزم المسلمين على

المقام تفرقوا فعاد إيلغازي إلى ماردين

وطغتكين إلى دمشق والفرنج إلى بلادها ، وكانت أفامية وكفر طاب للفرنج فقصد المسلمون كفر طاب وحصروها فلما اشتد الحصر على الفرنج ورأوا الهلاك قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم ، ودخل المسلمون البلد عنوة وقهروا وأسروا صاحبه وقتلوا من بقي فيه من الفرنج وساروا إلى قلعة أفامية فرأوها حصينة فعادوا عنها إلى المعرة وهي للفرنج أيضاً وفارقهم الأمير جيوش بك إلى وادي بزاعة(ا) فملكه وصارت العساكر عن المعرة إلى حلب وتقدمهم ثقلهم ودوابهم على جاري العادة والعساكر في أثره متلاحقة وهم آمنون لا يظنون أحدا يقدم على القرب منهم .

وكان روجيل صاحب أنطاكية لما بلغه حصر كفر طاب سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للمنع فوصل إلى المكان الذي ضربت فيه خيام المسلمين على غير علم بها، فرآها خالية من الرجال المقاتلة لأنهم لم يصلوا اليها فنهب جميع ما هناك وقتل كثيراً من السوقية وغلمان العسكر ووصلت العساكر متفرقة فكان الفرنج يقتلون كل من وصل إليهم ووصل الأمير برسق في نحو مائة فارس فرأى الحال فصعد تلاً هناك ومعه أخوه زنكي وأحاط بهم السوقية والغلمان واحتموا بهم ومنعوا الأمير برسق من النزول فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول والنجاة بنفسه فقال :لا أفعل بل أقتل في سبيل اللّه وأكون فداء المسلمين فغلبوه على رأيه فنجا هو ومن معه فتبعهم الفرنج نحو فرسخ ثم عادوا وتمموا الغنيمةِ والقتل وأحرقوا كثيراً من الناس وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة ولما سمع الموكلون بالأسرى المأخوذين من كفر طاب ذلك قتلوهم ، وكذلك فعل الموكل بأياز بن أيلغازي قتله أيضاً وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام فإنهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر فأتاهم ما لم يكن في الحساب وعادت العساكر

عنهم إلى بلادها . . وأما برسق وأخوه زنكي فإنهما توفيا في سنة عشر وخمسمائة وكان برسق خيراً ديناً وقد ندم على الهزيمة وهو يتجهز للعود إلى الغزاة فأتاه أجله .

(ا) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان 409/1 : " بزاعة : سمَعت من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر ومنهم من يقول بزاعا بالقصر ، وعليه قول شاعرهم :

لو أن بُزاعاً جنةُ الخُلد ما وَفَى رحيلي إليها بالتَّرَحل عنكمُ

وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بُطنان بين منبج وحلب ، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة .

ذكر ملك الفرنج رفنية وأخذها منهم

في هذه السنة في جمادى الآخرة ملك الفرنج رفنية من أرض الشام وهي لطغتكين صاحب دمشق وقووها بالرجال والذخائر وبالغوا في تحصينها فاهتم طغتكين لذلك ، وقوي عزمه على قصد بلاد الفرنج بالنهب لها والتخريب ، فأتاه الخبر عن رفنية لخلوها عن عسكر يمنع عنها وليس هناك إلا الفرنج الذي رتبوا لحفظها فسار إليها جريدة فلم يشعر من بها إلا وقد هجم عليهم البلد فدخله عنوة وقهراً وأخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض وغنم المسلمون من سوادهم وكرائمهم وذخائرهم ما امتلأت منه أيديهم وعادوا إلى بلادهم سالمين .

ذكر وفاة يحيى بن تميم وولاية ابنه علي

في هذه السنة توفي يحي بن تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية يوم عيد الأضحى فجأة وكان منجم قد قال له في منستير مولده : إن عليه قطعاً في هذا اليوم فلا تركب فلم يركب وخرج أولاده وأهل دولته إلى المصلى ، فلما انقضت الصلاة حضروا عنده للسلام عليه وتهنئته وقرأ القراء وأنشد الشعراء وانصرفوا إلى الطعام فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهم على الطعام فلم يَمْسِ غيرَ ثلاث خطا حتى وقع ميتا وكان ولده علي بمدينة سفاقس فأحضر وعقدت له الولاية ودفن يحيى بالقصر ثم نقل إلى التربة بالمنستير، وكان عمره سنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً وكانت ولايته ثمان سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً وخلف ثلاثين ولداً فقال عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي يرثيه ويهنىء ابنه علياً بالملك :

ما أغمِدَ الغَضْبُ إلا جُرد الذكرُ ولا اختفى قمرٌ حتى بدا قمرُ(1)

بموتِ يحيى أميت الناسُ كلَّهم حتى إذا ما على جاءهم نشروا

أن يبعثوا بسرور من تملكه فمن منية يحمى بالأسى قبروا

أوفى عليّ فسنُّ الملك ضاحكة وعينها من أبيه دمعها همرُ

شقت جيوب المعالي بالأسى فبكت في كل أفق عليه الأنجم الزهرُ

وقُلْ لابن تميم حزن ما دَهَما فكل حزن عظيم فيه محتقرُ

(1) العضب والذكر : صفتان للسيف القاطع .

قامَ الدليل ويحيى لا حياة له إن المنية لا تُبقي ولا تذرُ

وكان يحيى عادلاً في رعيته ضابطاً لأمور دولته مدبراً لجميع أحواله رحيماً بالضعفاء والفقراء يكثر الصدقة عليهم ويقرب أهل العلم والفضل ، وكان عالماً بالأخبار وأيام الناس والطب وكان حسن الوجه أشهر العين إلى الطول ما هو ولما استقر علي في الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جربة وسببه أن أهلها كانوا يقطعون الطريق ويأخذون التجار ، فحصرها وضيق على من فيها فدخلوا تحت طاعته والتزموا ترك الفساد وضمنوا إصلاح الطريق وكف عنهم عند ذلك وصلح أمر البحر وأمن المسافرون .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في رجب قدم السلطان محمد بغداد ووصل إليه أتابك طغتكين صاحب دمشق في ذي القعدة وسأل الرضا عنه فرضي عنه السلطان وخلع عليه ورده إلى دمشق . وفيها أمر الإمام المستظهر بالله ببيع البدرية وهي منسوبة إلى بدر غلام المعتضد بالله ، وكانت من أحسن دور الخلفاء وكان ينزلها الراضي باللّه ثم تهدمت وصارت تلاً . فأمر القادر بالته أن يسور عليها سور لأنها مع الدار الأمامية ففعل ذلك فلما كان الآن أمر ببيعها فبيعت وعمرها الناس . وفيها في شعبان وقعت الفتنة بين العامة وسببها أن الناس لما عادوا من زيارة مصعب اختصموا على من يدخل أولاً فاقتتلوا وقتل بينهم جماعة وعادت الفتن بين أهل المحال كما كانت ثم سكنت . وفيها أقطع السلطان محمد الموصل وما كان بيد آقسنقر البرسقي للأمير جيوش بك وسير ولده الملك مسعود

وأقام البرسقي بالرحبة ، وهي أقطاعه إلى أن توفي السلطان محمد وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى . وفيها توفي اسماعيل بن محمد بن أحمد بن ملة الأصبهاني أبو عثمان بن أبيِ سعيد الواعظ سمع الكثير وحدث ببغداد وغيرها وعبد اللهّ بن المبارك بن موسى السفطي أبو البركات ، له رحلة وله تصانيف وكان أديباً .

ثم دخلت سنة عشر وخمسمائة
ذكر قتل أحمديل بن وهسوذان

في هذه السنة أول محرم حضر أتابك طغتكين صاحب دمشق دار السلطان محمد ببغداد وحضر جماعة الأمراء ومعهم أحمديل بن إبراهيم بن وهسوذان الروادي الكردي ، صاحب مراغة وغيرها من أذربيجان ، وهو جالس إلى جانب طغتكين فأتاه رجل متظلم وبيده رقعة وهو يبكي ويسأله أن يوصلها إلى السلطان ، فأخذها من يده فضربه الرجل بسكين فجذبه أحمديل وتركه تحته فوثب رفيق للباطني وضرب أحمديل سكيناً أخرى فأخذتهما السيوف وأقبل رفيق لهما وضرب أحمديل ضربة أخرى فعجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبيه ، وظنَّ طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل وأنه بأمر السلطان فلما علموا أنهم باطنية زال هذا الوهم .

ذكر وفاة جاولي سقاوو وحال بلاد فارس معه

في هذه السنة توفي جاولي سقاوو . وكان السلطان ببغداد عازماً على المقام بها فاضطر إلى المسير إلى أصبهان ليكون قريباً من فارس لئلا تختلف عليه . وقد ذكرنا حال جاولي بالموصل إلى أن ملكت منه وأخذها السلطان فلما قصد السلطان ورضي عنه أقطعه بلاد فارس فسار جاولي إليها ومعه ولد السلطان جغري وهو طفل له من العمر سنتان وأمره بإصلاحها وقمع المفسدين بها فسار إليها . فأول ما اعتمده فيها أنه لما توسط بلاد الأمير بلدجي وهو من كبار مماليك السلطان ملكشاه ومن جملة بلاده كليل وسرماه ، وكان متمكناً بتلك البلاد راسله جاولي ليحضر خدمة جغري ولد السلطان وعلم جغري أن يقول بالفارسي ،

خذوه فلما دخل بلدجي قال جغري على عادته : خذوه فأخذ وقُتل ونُهبت أمواله . وكان لبلدجي من جملة حصونه قلعة اصطخر وهي من أمنع القلاع وأحصنها وكان بها أهله وذخائره ، وقد استناب في حفظها وزيراً له

يعرف بالجهرمي فعصى عليه وأخرج إليه أهله وبعض المال ولم تزل في يد الجهرمي حتى وصل جاولي إلى فارس فأخذها منه وجعل فيها أمواله.

وكان بفارس جماعة من أمراء الشوانكارة وهم خلق كثير لا يحصون ومقدمهم الحسن بن المبارز المعروف بخسرو وله فسا وغيرها ، فراسله جاولي ليحضر خدمة جغري فأجاب : إنني عبد السلطان وفي طاعته فأما الحضور فلا سبيل إليه لأنني قد عرفت عادتك مع بلدجي وغيره ولكنني أحمل إلى السلطان ما يؤثره . فلما سمع جاولي جوابه علم أنه لا مقام له بفارس معه فاطهر العود إلى السلطان وجمل أثقاله على الدواب ، وسار كأنه يطلب السلطان ورجع الرسول إلى خسرو فاخبره فاغتر وقعد للشرب وأمن وأما جاولي فإنه عاد من الطريق إلى خسرو جريدة في نفر يسير فوصل إليه وهو مخمور نائم ، فكبسه ف م تبهه أخوه فَضْلوه فلم يستيقظ فصبّ عليه الماء البارد فأفاق وركب من وقته وانهزم وتفرق أصحابه . ونهب جاولي ثقله وأمواله وأكثر القتل في أصحابه ونجا خسرو إلى حصنه وهو بين جبلين يقال لأحدهما أنْجُ وسار جاولي إلى مدينة فسا فتسلمها ونهب كثيراً من بلاد فارس منهم جهرم وسار إلى خسرو وحصره مدة وضيّق عليه ، فرأى من امتناع حصنه وقوته وكثرة ذخائره ما علم ان المدة تطول عليه فصالحه ليشتغل بباقي بلاد فارس ورحل عنه إلى شيراز ، فأقام بها ثم توجه إلى كازرون فملكها وحصر أبا سعد محمد بن ممّا في قلعته وأقام عليها سنتين صيفاً وشتاءً ، فراسله جاولي في الصلح

فقتل الرسول فأرسل إليه قوماً من الصوفية فأطعمهم الهريسة والقطائف ثم أمر بهم فخيطت أدبارهم وألقوا في الشمس فهلكوا . ثم تقدما عند أبي سعد فطلب الأمان فأمنه وتسلم الحصر . ثم إن جاولي أساء معاملته فهرب فقبض على أولاده وبث الرجال في أثره فرأى بعضهم زنجياً يحمل شيئاً فقال : ما معك ؟ فقال : بزادي ، ففتشه فرأى دجاجاً وحلواء السكر فقال : ما هذا من طعامك فضربه فأقَرَّ على أبي سعد وأنه يحمل ذلك إليه ، فقصدوه وهو في شعب جبل فأخذه الجندي وحمله إلى جاولي فقتله . وسار إلى دار ابجرد وصاحبها اسمه إبراهيم فهرب صاحبها منه إلى كرمان خوفاً منه وكان بينه وبين صاحب كرمان صهر وهو أرسلانشاه بن كرمانشاه بن أرسلان بك بن قاورت فقال له : لو تعاضدنا لم يقدر علينا جاولي وطلب منه النجدة وسار جاولي بعد هربه منه إلى حصار رتيل رننه يعني مضيف رننه وهو موضع لم يؤخذ

قهراً قط لأنه وادٍ نحو فرسخين وفي صدره قلعة منيعة على جبل عالٍ وأهل دار أبجرد يتحصنون به إذا خافوا فأقاموا به وحفظوا أعلاه فلما رأى جاولي حصانته سار يطلب البرية نحو كرمان كأنما أمره ثم رجع من طريق كرمان إلى دار أبجرد مظهراً أنه من عسكر الملك أرسلانشاه صاحب كرمان فلم يشك أهل الحصن أنهم مدد لهم مع صاحبهم فاظهروا السرور وأذنوا له في دخول المضيق فلما دخله وضع السيف فيمن هناك فلم ينج غير القليل ونهب أموال أهل دار ابجرد وعاد إِلى مكانه وراسل خسرو يعلمه أنه عازم على التوجه إلى كرمان ويدعوه إليه فلم يجد بداً من موافقته فنزل إليه طائعاً وسار معه إلى كرمان ، وأرسل إلى صاحبها القاضي أبا طاهر عبدالله بن طاهر قاضي شيراز يأمره بإعالة الشوانكارة لأنهم رعية السلطان ، ويقول إنه متى أعادهم عاد عن قصد بلاده وإلا قصده ، فأعاد صاحب كرمان جواب الرسالة يتضمن الشفاعة فيهم حيث استجاروا به ولما وصل الرسول إلى جاولي أحسن إليه وأجزل له العطاء وأفسده على صاحبه وجعله عيناً له عليه وقرر معه إعادة عسكر كرمان ليدخل البلاد وهم غارون ، فلما عاد الرسول وبلغ السيرجان وبها عساكر صاحب كرمان ووزيره مقدم الجيش أعلم الوزير ما عليه جاولي من المقاربة ، وأنه يفارق ما كرهوه وأكثر من هذا النوع وقال ، لكنه مستوحش من اجتماع العساكر بالسيرجان ، وأن أعداء جاولي طمعوا فيه بهذا العسكر والرأي أن تعاد العساكر إلى بلادها فعاد الوزير والعساكر وخلت السيرجان وسار جاولي في أثر

الرسول فنزل بفرج وهي الحدّ بين فارس وكرمان ، فحاصرها فلما بلغ ذلك ملك كرمان أحضر الرسول وأنكر عليه إِعادة العسكر فاعتذر إليه وكان مع الرسول فراش لجاولي ليعود إليه بالأخبار فارتاب به الوزير فعاقبه فاقر على الرسول فصلب ونهبت أمواله وصلب الفراش ، وندب العساكر إلى المسير إلى جاولي فساروا في ستة آلاف فارس وكانت الولاية التي هي الحدّ بين فارس وكرمان بيد إنسان يسمى موسى ، وكان ذا رأي ومكر فاجتمع بالعسكر وأشار عليهم بترك الجادة المسلوكة . وقال : إن جاولي محتاط بها ، وسلك بهم طريقاً غير مسلوكة بين جبال ومضايق ، وكان جاولي يحاصر فرج وقد ضيق على من بها وهو يدمن الشرب فسيَّر أميراً في طائفة من عسكره ليلقى العسكر المنفذ من كرمان ، فسار الأمير فلم يَرَ أحداً فظن أنهم قد عادوا فرجع إلى جاولي وقال : إن العسكر كان قليلًا فعاد خوفاً منا فاطمأن حينئذ جاولي وأدمن شرب الخمر ووصل عسكر كرمان إِليه ليلاً وهو سكران نائم فأيقظه بعض أصحابه وأخبره فقطع لسانه فاتاه غيره

وأيقظه وعرفه الحال فاستيقظ وركب وانهزم ، وقد تفرق عسكره منهزمين فقتل منهم وأسر كثير ، وأدركه خسرو وابن أبي سعد الذي قتل جاولي أباه فسارا معه في أصحابهما فالتفت فلم يَرَ معه أحداً من أصحابه الأتراك ، فخاف على نفسه منهم فقالا له : إنا لا نغدر بك ولن ترى منا إلا الخير والسلامة وسارا معه حتى وصل إلى مدينة فسا واتصل به المنهزمون من أصحابه وأطلق صاحب كرمان الأسرى وجهزهم وكانت هذه الوقعة في شوال سنة ثمان وخمسمائة ، وبينما جاولي يدبر الأمر ليعاود كرمان ويأخذ بثأره توفي الملك جغري ابن السلطان محمد وعمره خمس سنين ، وكانت وفاته في ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة ففتَّ ذلك في عضده . فأرسل ملك كرمان رسولًا إلى السلطان وهو ببغداد يطلب منه متع جاولي عنه فأجابه السلطان إنه لا بد من إرضاء جاولي وتسليم فرج إليه ، فعاد الرسول في ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة فتوفي جاولي فأمنوا ما كانوا يخافونه فلما سمع السلطان سار عن بغداد إلى أصبهان خوفاً على فارس من صاحب كرمان .

ذكر فتح جبل وسلات وتونس

في هذه السنة حصر عسكر علي بن يحيى صاحب أفريقية مدينة تونس وبها أحمد بن خراسان وضيق على من بها فصالحه صاحبها على ما أراد .

وفيها فتح أيضاً جبل وسلات بأفريقية واستولى عليه وهو جبل منيع ولم يزل أهله طول الدهر يفتكون بالناس ويقطعون الطريق

فلما استمر ذلك منهم سيّر إليهم جيشاً فكان أهل الجبل ينزلون إلى الجيش ويقاتلون أشد قتال فعمل قائد الجيش الحيلة في الصعود إلى الجبل من شعب لم يكن أحد يظن أنه يصعد منه فلما صار في أعلاه في طائفة من أصحابه ثار إليه أهل الجبل فصبر لهم وقاتلهم فيمن معه أشد قتال ، وتتابع الجيش في الصعود إليه فانهزم أهل الجبل وكثر القتل فيهم ومنهم من رمى نفسه فتكسر ومنهم من أفلت واحتمى جماعة كثيرة بقصر في الجبل فلما أحاط بهم الجيش طلبوا أن يرسل إليهم من يصلح حالهم ، فأرسل إليهم جماعة من العرب والجند فثار بهم أولئك بالسلاح فقتلوا بعضهم وطلع الباقون إلى أعلى القصر ونادوا أصحابهم من الجيش فأتوهم وقاتلوهم بعضهم من أعلى القصر وبعضهم من أسفله فالقى من فيه من أهل الجبل أيديهم فقتلوا كلهم .

ذكر الفتنة بطوس

في هذه السنة في عاشوراء كانت فتنة عظيمة بطوس في مشهد عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وسببها أن علوياً خاصم في المشهد يوم عاشوراء بعض فقهاء طوس فادى ذلك إلى مضاربة وانقطعت الفتنة ،ثم استعان كل منهما بحزبه فثارت فتنة عظيمة حضرها جميع أهل طوس وأحاطوا بالمشهد وخربوه وقتلوا من وجدوا فقتل بينهم جماعة ونهبت أموال جمة وافترقوا وترك أهل المشهد الخطبة أيام الجمعات فيه فبنى عليه عضد الدين فرامرز بن علي سوراً منيعاً يحتمي به من المشهد على من يريده بسوء وكان يناؤه سنة خمس عشرة وخمسمائة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وقعت النار في الحظائر للمدرسة النظامية ببغداد فاحترقت الأخشاب التي بها ، واتصل الحريق إلى درب السلسلة وتطاير الشرر إلى باب المراتب فاحترقت منه عدة دور واحترقت خزانة كتب النظامية وسله ت الكتب لأن الفقهاء لما أحسوا بالنار نقلوها. وفيها لَوفي عبد الله بن يحمى بن محمد بن بهلول أبو محمد الأندلسي السرقسطي وكان فقيهاً فاضلاً ورد نحو العراق سنة خمسمائة وسار إلى خراسان فسكن مرو الروذ فمات بها وله شعر حسن فمنه :

ومهفهفٌ يختالُ في أبراده مرحَ القضيبِ اللدنِ تحت البارحِ

أبصرتُ في مرآةِ فكري خدَهُ فحكيتُ فعلَ جفونهِ بجوارحي

⊏ما كنتُ أحسبُ أن فعل توهمي يقوي تعديهِ فيجرحُ جارحي

⊐لا غرو إن جرحَ التوهمُ خدَّهُ فالسحرُ يعمل في البعيدِ النازحِ

وفيها في شعبان توفي أبو القاسم علي بن محمد بن أحمد بن بيان الرزاز ومولده في صفر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وهو آخر من حدث عن أبي الحسن بن مخلد وأبي القاسم بن بشران . وفيها توفي أبو بكر محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني رئيس الشافعية بمرو ومولده سنة ست وأربعين وأربعمائة وسمع الحديث الكثير وصنف وله فيه آمال حسنة وتكلم على الحديث فاحسن ما شاء. وفيها توفي محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني أبو الخطاب الفقيه الحنبلي ومولده سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وتفقه على أبي يعلى بن الفراء .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وخمسمائة
ذكر وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

في هذه السنة في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان وكان ابتداء مرضه في شعبان وانقطع عن الركوب وتزايد مرضه ودام وأرجف عليه بالموت . فلما كان يوم عيد النحر حضر السلطان وحضر ولده السلطان محمود على السماط فنهبه الناس ثم أذن لهم فدخلوا إلى السلطان محمد وقد تكلف القعود لهم وبين يديه سماط كبير فأكلوا وخرجوا فلما انتصف ذو الحجة أيس من نفسه فاحضر ولده محموداً وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس وعمره إِذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال لوالده : إنه يوم غير مبارك – يعني من طريق النجوم –فقال : صدقت ولم لكن على أبيك ، وأما علمك فمبارك بالسلطنة فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين وفي يوم الخميس الرابع والعشرين أحضر الأمراء وأعلموا بوفاته وقُرئت وصيته إلى ولده محمود يأمره بالعدل والإحسان . وفي الجمعة الخامس والعشرين منه خطب لمحمود بالسلطنة وكان مولد السلطان محمد ثامن عشر شعبان من سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام وأول ما دُعيَ له بالسلطنة ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ، وقطعت خطبته عدة دفعات على ما ذكرناه ولقي من المشاق والأخطار ما لا حدَّ عليه فلما توفي أخوه بركيارق صفت له السلطنة وعظمت هيبته وكثرت جيوشه وأمواله وكان اجتمع

الناس عليه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر .

ذكر بعض سيرته

كان عادلاً حسن السيرة شجاعاً فمن عدله أنه اشترى مماليك من بعض التجار

وأحالهم بالثمن على عامل خوزستان فأعطاهم البعض ومطل بالباقي ، فحضروا مجلس الحكم وأخذوا معهم غلمان القاضي فلما رآهم السلطان قال لحاجبه : انظر ما حال هؤلاء ؟ فسألهم عن حالهم فقالوا : لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم فقال من هو؟ قالوا : السلطان . وذكروا قصتهم فاعلمه ذلك فاشتد عليه وأكره وأمر بإحضار العامل وأمره بإيصال أموالهم والجعل الثقيل ، ونكل به حتى يمتنع غيره عن مثل فعله . ثم إِنه كان يقول بعد ذلك لقد ندمت ندماً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم فيفتدي بي غيري ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق .

ومن عدله أنه كان له خازن يعرف بأبي أحمد القزويني قتله الباطنية ، فلما قتل أمر بعرض الخزانة فعرض عليه فيها دِرْجٌ فيه جوهر كثير نفيس فقال : إن هذا الجوهر عرضه عليَّ منذ أيام وهو في ملك أصحابه وسلمه إلى خادم ليحفظه وينظر من أصحابه إ فيسلم إليهم فسال عنهم وكانوا تجاراً غرباء– وقد تيقنوا ذهابه وأيسوا منه فسكتوا فأحضرهم وسلمه إليهم . ومن عدله أنه أطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه ومن محاسن أعماله ما فعله مع الباطنية على ما نذكره .

ذكر حال الباطنية أيام السلطان محمد

قد تقدم ذكر ما اعتمده من حصر قلاعهم ونحن نذكر ههنا زيادة اهتمامه بأمرهم فإنه رحمه الله تعالى لما علم أن مصالح

البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم جعل قصدهم دأبه وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم بأمرهم الحسن بن الصباح الرازي صاحب قلعة الموت وكانت أيامه قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزواته عليهم وقتله وأسره رجالهم وسبي نسائهم فسير إليه السلطان العساكر على ما ذكرناه فعادت من غير بلوغ غرض ، فلما أعْضَلَ داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب آية وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع منها قلعة كلام ملكها في جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة وكان مقدمها يعرف بعلي بن موسى فأمنه ومن معه وسيّرهم إلى الموت ، وملك منهم أيضاً قلعة بيرة وهي على سبعة فراسخ من قزوين وأمنهم وسيَّرهم إلى الموت أيضاً ، وسار إلى قلعة الموت فيمن معه من العساكر وأمده

السلطان بعدة من الأمراء فحصرهم ، وكان هو من بينهم صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم مع جودة رأي وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه ، وعيَّن لكل طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها فكانوا ينيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها . فلما اشتد عليهم الأمر نزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قصداً ليموت الجميع جوعاً وكان ابن الصباح يجري لكل رجل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات ، فلما بلغ بهم الأمر إلى الحدّ الذي لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم . ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم ولزموا على الرحيل فقال شيركير : إن رَحَلْنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها ، وإن لم يكن المقام فلا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد منا ثقلنا وما أعددناه ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو . فلما سمعوا قوله علموا صدقه فتعاهدوا على الاتفاق والاجتماع فلما أمسوا رحلوا من غير مشاورة ولم يبق غير شيركير ونزل إليه الباطنية من القلعة فدافعهم وقاتلهم وحمى مَنْ تخلف من سوقه العسكر وأتباعه ولحق بالعسكر فلما فارق القلعة غنم الباطنية ما تخلف عندهم .

ذكر حصار قابس والمهدية

في هذه السنة جهز علي بن يحيى صاحب أفريقية أسطولاً

في البحر إلى مدينة قابس وحصرها . وسبب ذلك أن صاحبها رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجار في البحر وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى فلم ينكر يحيى ذلك جرياً على عادته في المداراة فلما ولي علي الأمر بعد أبيه أنِفَ من ذلك وقال لا يكون لأحد من أهل أفريقية أن يناوبني في إجراء المركب في البحر بالتجار ، فلما خاف رافع أن يمنعه علي التجأ إلى اللعين رجار ملك الفرنج بصقلية واعتضد به فوعده رجار أن ينصره ويعينه على أجراء مركبه في البحر وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس فاجتازوا بالمهدية فحينئذ تحقق على اتفاقهما وكان يكذبه فلما جاز أسطول رجار بالمهدية أخرج على أسطوله في اثره فتوافى الجميع إلى قابس فلما رأى صاحبها أسطول الفرنج والمسلمين لم يخرج

مركبه ، فعاد أسطول الفرنج وبقي أسطول علي يحصر رافعاً بقابس مضيِّقاً عليها ، ثم عادوا إلى المهدية . وتمادى رافع في المخالفة لعلي وجمع قبائل العرب وسار بهم حتى نزل على المهدية محاصراً لها وخادع علياً وقال : إنني إنما جئت للدخول في الطاعة وطلب من يسعى في الصلح ، وأفعاله تكذب أقواله ، فلم يجبه عن ذلك بحرف . وأخرج العساكر وحملوا على رافع ومن معه حملة منكرة فألحقوهم بالبيوت ووصل العسكر إلى البيوت فلما رأى ذلك النساء صحن وَوَلْوَلْنَ فغارت العرب وعاودت القتال ، واشتد حينئذ الأمر إلى المغرب ثم افترقوا وقد قتل من عسكر رافع بشر كثير ولم يقتل من جند علي غير رجل واحد من الرجالة ثم خرج عسكر علي مرة أخرى فاقتتلوا أشد من القتال الأول كان الظهور فيه لعسكر علي فلما رأى رافع أنه لا طاقة له بهم رحل عن المهدية ليلًا إلى القيروان فمنعه أهلها من دخولها فقاتلهم أياماً قلائل ثم دخلها فأرسل علي إليه عسكراً من المهدية فحصروه فيها إلى أن خرج عنها وعاد إلى قابس ، ثم إن جماعة من أعيان أفريقية من العرب وغيرهم سألوا علياً في الصلح فامتنع ثم أجاب إلى ذلك وتعاهد عليه .

ذكر الوحشة بين رجار والأمير علي

كان رجار صاحب صقلية بينه وبين الأمير علي صاحب أفريقية مودة وكيدة إلى أن أعان رافعاً كما تقدم قبلُ ، فاستوحش كل منهما من صاحبه ثم بعد ذلك خاطبه رجار بما لم تجر عادتهم به فتأكدت الوحشة فأرسل رجار رسالة فيها خشونة فاحترز علي منه وأمر بتجديد الأسطول وأعداد الأهبة للقاء العدو وكاتب المرابطين

بمراكش في الاجتماع معه على الدخول إلى صقلية فكف رجار عما كان يعتمده .

ذكر قتل صاحب حلب واستيلاء أيلغازي عليها

في هذه السنة قتل لؤلؤ الخادم وكان قد استولى على قلعة حلب وأعمالها بعد وفاة الملك رضوان وولي أتابكية ولده ألب أرسلان . فلما مات أقام بعده في الملك سلطانشاه بن رضوان وحكم في دولته ، أكثر من حكمه في دولة أخيه . فلما كان هذه السنة سار منها إلى قلعة جَعبر ليجتمع بالأمير سالم بن مالك صاحبها ، فلما كان عند قلعة نادر نزل يريق الماء فقصده جماعة من أصحابه الأتراك وصاحوا : أرنب أرنب

وأوهموا أنهم يتصيدون ورموه بالنشاب فقُتل ، فلما هلك نهبوا خزانته فخرج إليهم أهل حلب فاستعادوا ما أخذوه ووَلي أتابكية سلطانشاه بن رضوان شمس الخواص ياروقتاش فبقي شهراً وعزلوه ، ووُلي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزلوه وصادروه . وقيل كان سبب قتل لؤلؤ أنه أراد قتل سلطانشاه كما قتل أخاه ألب أرسلان قبله ففطن به أصحاب سلطانشاه فقتلوه . وقيل كان قتله سنة عشر وخمسمائة واللّه أعلم . ثم إن أهل حلب خافوا من الفرنج فسلموا البلد إلى نجم الدين أيلغازي ، فلما تسلمه لم يجد فيه مالاً ولا ذخيرة لأن الخادم كان قد فرق الجميع وكان الملك رضوان قد جمع فاكثر فرزقه الله غير أولاده ، فلما رأى أيلغازي خلوّ البلد من الأموال صادر جماعة من الخدم بمال صانع به الفرنج وهادنهم مدة يسيرة تكون بمقدار مسيره إلى ماردين ، وجمع العساكر والعود فلما تمَّت الهدنة سار إلى ماردين على هذا العزم واستخلف بحلب ابنه حسام الدين تمرتاش.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في رابع عشر صفر انخسف القمر انخسافاً كلياً .

وفي هذه الليلة هجم الفرنج على ربض حماة من الشام وقتلوا من أهلها ما يزيد على مائة رجل وعادوا .

وفيها في يوم عرفة كانت زلزلة بالعراق والجزيرة وكثير من البلاد وخرجت ببغداد دور كثيرة بالجانب الغربي وفيها مات أحمد

العربي ببغداد وكان من عباد الله الصالحين له كرامات وقبره يزار بها.

وفي هذه السنة في شوال توفي أبو علي محمد بن سعد بن ابراهيم بن نبهان الكاتب وعمره مائة سنة ، وكان عالي الإسناد روى عن أبي علي بن شاذان وغيره والحسن بن أحمد بن جعفر أبو عبدالله الشقاق الفرضي الحاسب ، وكان واحد عصره في علم الفرائض والحساب وسمع الحديث من أبي الحسين بن المهتدي وغيره .

وفيها مات الكزايكس ملك القسطنطينية وملك بعده ابنه يوحنا وسلك سيرته وفيها مات دوقس أنطاكية وكفى الله شره .

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وخمسمائة
ذكر ما فعله السلطان محمود بالعراق
وولاية البرسقي شحنكية ببغداد

لما توفي السلطان محمد وملك بعده ابنه محمود ودبر دولته الوزير الربيب أبو منصور أرسل إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد ، فخطب له في الجمعة ثالث عشر المحرم ، وكان شحنة بغداد بهروز . ثم إن الأمير دبيس بن صدقة كان عند السلطان محمد مذ قتل والده – على ما ذكرناه – فاحسن إليه وأقطعه أقطاعاً كثيراً ، فلما توفي السلطان محمد خاطب السلطان محموداً في العود إلى بلده الحلة فاذن له في ذلك فعاد إليها فاجتمع عليه خلق كثير من العرب والأكراد وغيرهم . وكان آقسنقر البرسقي مقيماً بالرحبة وهي أقطاعه وليس بيده من الولايات شيء فاستخلف عليها ابنه عز الدين مسعوداً ، وسار إلى السلطان محمد قبل موته عازماً على مخاطبته في زيادة أقطاعه فبلغه وفاة السلطان محمد قبل وصوله إلى بغداد ، وسمع مجاهد الدين بهروز بقربه من بغداد فأرسل إليه يمنعه من دخولها فسار إلى السلطان محمود فلقيه توقيع السلطان بولاية شحنكية بغداد وهو بحلوان وعزل بهروز، وكان الأمراء عند السلطان يريدون البرسقي ويتعصبون له ويكرهون مجاهد الدين بهروز يحسدونه لقربه كان عند السلطان محمد وخافوا أن يزداد تقدماً عند السلطان محمود وحكماً ، فلما تولى البرسقي شحنكية بغداد هرب بهروز إلى تكريت وكانت له ثم إن السلطان ولى شحنكية بغداد الأمير منكوبرس وهو من أكابر الأمراء وقد حكم في دولة السلطان محمود فلما أعطي الشحنكية سير إليها ربيبه الأمير

حسين بن أزبك أحد الأمراء الأتراك وهو صاحب أسدأباذ لينوب عنه ببغداد والعراق وفارق السلطان من باب همذان ، واتصل به جماعة الأمراء البكجية وغيرهم ، فلما سمع البرسقي خاطب الخليفة المستظهر بالله ليأمره بالتوقف إلى أن يكاتب السلطان ويفعل ما يرد به الأمر عليه ، فأرسل إليه الخليفة

فأجاب أن يرسم الخليفة بالعود عدت وإلا فلا بدّ من دخول بغداد فجمع البرسقي أصحابه وسار إليه فالتقوا واقتتلوا فقتل أخ حسين وانهزم هو ومن معه ، وعادوا إلى عسكر السلطان فكان ذلك في شهر ربيع الأول قبل وفاة المستظهر بالله بأيام .

ذكر وفاة المستظهر بالله

في هذه السنة سادس عشر شهر ربيع الأخر توفي المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله وكان مرضه التراقي وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً ، ووزر له عميد الدولة أبو منصور بن جهير وسديد الملك أبو المعالي المفضل بن عبد الرزاق الأصبهاني ، وزعيم الرؤساء أبو القاسم بن جهير ومجد الدين أبو المعالي هبة الله بن المطلب ، ونظام الدين أبو منصور الحسين بن محمد ، وناب عن الوزارة أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا وقاضي القضاة أبو الحسن علي بن الدامغاني ومض في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه . ومن غريب الاتفاق أنه لما توفي السلطان ألب أرسلان توفي بعده القائم بأمر الله ، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعده المقتدي بأمر الله ، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده المستظهر بالله .

ذكر بعض أخلاقه وسيرته

كان رضي الله عنه لين الجانب كريم الأخلاق يحب اصطناع الناس ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات مشكور

المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه . وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعايةِ ساعٍ ولا ملتفتٍ إلى قوله ، ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأعراض . وكانت أيامه أيام سرور الرعية فكأنها من حُسنِها أعياد . وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره لاذا تعرض سلطان أو نائب له إلى أذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه ، وكان حسن الحظ جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد يدل على فضل غزير وعلم واسع . ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله وكبر أربعاً ودفن في حجرة له كان يألفها ومن شعره قوله :

ـ أذابَ حر الهوى في القلبِ ما جمدا لما مددتُ إلى رسمِ الوداعِ يدا

وكيف أسلكُ نهجَ الاصطبَارِ وقد أرى طرائق في مهوى الهوى قددا

قد خلفَ الوعدَ بدر قد شُغِفتُ به من بعدما قد وفى دهري بما وعدا

إن كنتُ أنقضُ عهدَ الحبِّ في خَلَدي من بعدِ هذا فلا عاينته أبدا

ذكر خلافة الإمام المسترشد بالله

لما توفي المستظهر بالله بويع ولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبي العباس أحمد بن المستظهر بالله ، وكان ولي عهد قد خطب له ثلاثاً وعشرين سنة فبايعه أخواه ابنا المستظهر بالله وهما أبو عبدالله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي بأمر الله وغيرهم من الأمراء والقضاة والأئمة والأعيان . وكان المتولي لأخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني ، وكان نائباً عن الوزارة فاقره المسترشد بالله عليها . ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا وأحمد بن أبي داود فإنه أخذها للواثق بالله والقاضي أبو علي اسماعيل بن إسحاق أخذها للمعتضد بالله ثم إن المسترشد عزل قاضي القضاة عن نيابة الوزارة ، واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبي منصور وزير السلطان محمود وكان والده خطب في معنى ولده حتى استوزر وقبض على صاحب المخزن أبي طاهر يوسف بن أحمد الحزي .

ذكر هرب الأمير أبي الحسن أخي المسترشد وعوده

لما اشتغل الناس ببيعة المسترشد باللّه ركب أخوه الأمير أبو

الحسن بن المستظهر بالله سفينة ، ومعه ثلاثة نفر وانحدر إلى المدائن وسار منها إلى دبيس بن صدقة بالحلة وأكرمه دبيس وعلم منه وفاة المستظهر بالله وأقام له الإقامات الكثيرة ، فلما علم استرشد بالله خبره أهمه ذلك وأقلقه ، وأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادته فاجاب بأنني عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فقد استذم بي ودخل منزلي فلا أكرهه على أمر أبداً ، وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين علي بن طراد الزينبي فقصد الأمير أبا الحسن وتحدث معه في عوده ، وضمن له عن الخليفة كل ما يريده فأجاب إلى العود وقال : إنني لم أفارق أخي لشر أريده وإنما الخوف حملني على مفارقته فإذا أمنني قصدته ، وتكفل دبيس بإصلاح الحال بنفسه والمسير معه إلى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة الحال فأجابه وطلب منه ثم حدث من أمر البرسقي دبيس ما

ذكرناه ، فتأخر الحال وأقام الأمير أبو الحسن عند دبيس إلى ثاني عشر صفر سنة ثلاث ، عشرة وخمسمائة ، ثم سار عن الحلة إلى واسط ، وكثر جمعه وقوي الإرجاف بقرته وملك مدينة واسط وخيف جانبه ، فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولي عهده ولده أبي جعفر المنصور وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة ، فخطب له ثاني ربيع الأخر ببغداد وكتب إلى البلاد بالخطبة له وأرسل إلى دبيس بن مزيد في معنى الأمير أبي الحسن ، وأنه الآن قد فارق جواره ومدّ يده إلى بلاد الخليفة وما يتعلق به وأمره بقصده ومعاجلته قبل فوته ، فأرسل دبيس العساكر إليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلوا الطريق ووصلت عساكر دبيس فصادفوهم عند الصلح ، فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد من أصحابه والأتراك وعاد البانون إلى دبيس وبقي الأمير أبو الحسن في عشرة من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ ، وكان الزمان قيظاً فأيقن بالتلف ، وتبعه بدويان فأراد الهرب منهما فلم يقدر ، فأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه وحملاه إلى دبيس فسيره إلى بغداد وحمله إلى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل إلى الدار العزيزة ، وكان بين خروجه عنها وعوده إليها أحد عشر شهراً ، ولما دخل على المسترشد بالله قبل قدمه وقبله المسترشد وبكيا وأنزله داراً حسنة كان هو يسكنها قبل أن يلي الخلافة وحمل إليه الخلع والتحف الكثيرة وطيب نفسه وأمنه .

ذكر مسير الملك مسعود وجيوش بك إلى العراق وما كان بينهما وبين البرسقي ودبيس

في هذه السنة في جمادى الأولى برز البرسقي ونزل بأسفل

الرقة في عسكره ومن معه وأظهر أنه على قصد الحلة وإجلاء دبيس بن صدقة عنها ، وجمع دبيس جموعاً كثيرة من العرب والأكراد وفرق الأموال الكثيرة والسلاح وكان الملك مسعود بن السلطان محمد بالموصل مع أتابكه أي أبه جيوش بك فأشار عليهما جماعة ممن عندهما بقصد العراق فإنه لا مانع دونه ، فسارا في جيوش كثيرة ومع الملك مسعود وزيره فخر الملك أبو علي بن عقَار صاحب طرابلس وقسيم الدولة زنكي بن آقسنقر جد ملوكنا الآن بالموصل وكان من الشجاعة في الغاية ومعهم أيضاً صاحب سنجار وأبو الهيجاء صاحب إربل وكرباوي بن خراسان التركماني صاحب البوازيج فلما علم البرسقي قربهم خافهم .

وكان البرسقي قديماً قد جعله السلطان محمد أتابك ولده مسعود على ما ذكرناه ، وإنما كان خوفه من جيوش بك فلما قاربوا بغداد سار إليهم ليقاتلهم ويصدهم ، فلما علم مسعود وجيوش بك ذلك أرسلوا إليه الأمير كزباوي في الصلح وأعلمه أنهم إنما جاؤوا نجدة له على دبيس واصطلحوا وتعاهدوا واجتمعوا ووصل مسعود إلى بغداد ونزل بدار المملكة ووصلهم الخبر بوصول الأمير عماد الدين منكبرس المقدم ذكره في جيش كثير فسار البرسقي عن بغداد نحوه ليحاربه ويمنعه عنها ، فلما علم به منكبرس قصد النعمانية وعبر دجلة هناك واجتمع هو ودبيس بن صدقة وكان دبيس قد خاف من الملك مسعود والبرسقي فبنى أمره على المحاجزة والملاطفة ، فأهدى إلى مسعود هدية حسنة وللبرسقي وجيوش بك فلما وصله خبر وصول منكبرس راسله واستماله واتفقا على التعاضد والتناصر واجتمعا كل واحد منهما قوي بصاحبه ، فلما اجتمعا سار الملك مسعود والبرسقي وجيوش بك ومن معهم إلى المدائن للقاء دبيس ومنبكرس فلما وصلوا المدائن أتتهم الأخبار بكثرة الجمع معهما ، فعاد البرسقي والملك مسعود وعبرا نهر صرصر وحفظا المخاضات عليه ونهبت الطائفتان السواد نهباً فاحشاً نهر الملك ونهر صرصر ونهر عيسى وبقض دجيل واستباحوا النساء فأرسل المسترشد بالله إلى الملك مسعود والبرسقي ينكر هذه الحال ويأمرهم بحقن الدماء وترك الفساد ويأمر بالموادعة والمصالحة .

وكان الرسل سديد الدولة بن الأنباري والإمام الأسعد

الميهني مدرس النظامية فأنكر البرسقي أن يكون جرى منهما شيء من ذلك وأجاب إلى العود إلى بغداد فوصل . من أخبره أن منكبرس ودبيسا قد جهزا ثلاثة آلاف فارس مع منصور أخي دبيس والأمير حسين بن أزبك ربيب منكبرس ، وسيراه وعبر عند درزيجان ليقطعوا مخاضة عند ديالي إلى بغداد لخلوها من عسكر يحميها ويمنع عنها فعاد البرسقي إلى بغداد وعبر الجسر لئلا يخاف الناس ، ولم يعلموا الخبر وخلف ابنه عز الدين مسعوداً على عسكره بصرصر واستحب معه عماد الدين زنكي بن آقسنقر ، فوصل إلى ديالي ومنع عسكر منكبرس من العبور فأقام يومين فاتاه كتاب ابنه عز الدين مسعود يخبره أن الصلح قد استقر بين الفريقين فانكسر نشاطه ، حيث جرى هذا الأمر ولم يعلم لم يه وعاد نحو بغداد وعبر إلى الجانب الغربي وعبر منصور وحسين فسارا في عسكرهما خلفه فوصلوا بغداد عند نصف الليل فنزلا عند جامع السلطان وسار البرسقي إلى الملك مسعود فأخذ بركه

وماله ، وعاد إلى بغداد فخيم عند القنطرة العتيقة وأصد الملك مسعود وجيوش بك فنزلا عند البيمارستان وأصعد دبيس ومنكبرس فخيما تحت الرقة وأقام عز الدين مسعود البرسقي عند منكبرس منفرداً عن أبيه وكان سبب هذا الصلح أن جيوش بك كان قد أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيادة له وللملك مسعود فوصل كتاب الرسول من العسكر يذكر أنه لقي من السلطان إحساناً كثيراً وأنه أقطعهم أذربيجان ، فلما بلغه رحيلكم إلى بغداد اعتقد أنكم قد عصيتم عليه فعاد عما كان استقر ويقول : إن السلطان قد جهز عسكراً إلى الموصل ، فوقع الكتاب بيد منكبرس فأرسله إلى جيوش بك وضمن له إصلاح السلطان له وللملك مسعود ، وكان منكبرس متزوجاً بأم الملك مسعود واسمها سرجهان ، وكان يؤثر مصلحته لذلك واستقر الصلح وخافا من البرسقي أن يمنع منه ، فاتفقا على ارسال العسكر إلى درزيجان لينفذ في مقابلته البرسقي ليخلو العسكر منه ويقع الاتفاق فكان الأمر في مسيره على ما تقدم وكان البرسقي محبوبا إلى أهل بغداد لحسن سيرته فيهم ، فلما استقر الصلح ووصلوا إلى بغداد تفرق عن البرسقي أصحابه وجموعه وبطل ما كان يحدث به نفسه من التغلب على العراق بغير أمر السلطان ، وسار عن العراق إلى المَلك مسعود فأقام معه واستقر منكبرس في شحنكية بغداد وودعه دبيس بن صدقة ، وعاد إلى الحلة بعد أن طالب بدار أبيه بدرب فيروز ، وكانت قد دخلت في جامع القصر ببغداد فصولح عنها بمال وأقام منكبرس ببغداد يظلم ويعسف

الرعية ويصادرهم ، فاختفى أرباب الأموال وانتقل جماعة إلى حريم دار الخلافة خوفاً منه وبطلت معايش الناس وأكثر أصحابه الفساد حتى أن بعض أهل بغداد زفت إليه امرأة تزوجها ، فعلم بعض أصحاب منكبرس فاتاه وكسر الباب وجرح الزوج عدة جراحات وابتنى بزوجته فكثر الدعاء ليلاً ونهاراً واستغاث الناس لهذه الحال وأغلقوا الأسواق ، فاخذ الجندي إلى دار الخلافة فاعتقل أياماً ثم أطلق . وسمع السلطان بما يفعله منكبرس ببغداد فأرسل إليه يستدعيه ويحثه على اللحوق به وهو يغالط ويدافع ، وكلما طلبه السلطان في جمع الأموال والمصادرات ، فلما علم أهل بغداد تغير السلطان عليه واستدعاءه إياه طمعوا فيه فسار حينئذ منكبرس عنهم خوفاً أن يثوروا به وكفى الناس شره وظهر من كان مستتراً .

في ذي الحجة من سنة إحدى عشرة وخمسمائة توفي بغدوين ملك القدس وكان قد سار إلى ديار مصر في جمع الفرنج قاصداً ملكها والتغلب عليها وقوي طمعه في الديار المصرية ، وبلغ مقابل تنيس وسبح في النيل فانتقض جرح كان به ، فلما أحس بالموت عاد إلى القدس فما ت ووصى ببلاده للقمص صاحب الرها ، وهو الذي كان أسره جكرمش وأطلقه جاولي سقاوو. واتفق أن هذا القمص كان قد سار إلى القدس يزور بيعة قمامة ، فلما وصى إِليه بالملك قبله واجتمع له القدس والرها ، وكان أتابك طغتكين قد سار عن دمشق لقتال الفرنج ، فنزل بين دير أيوب وكفر بصل باليرموك فخفيت عنه وفاة بغدوين ، حتى سمع الخبر بعد ثمانية عشر يوماً وبينهم نحو يومين فاتته رسل ملك الفرنج بطلب المهادنة ، فاقترح عليه طغتكين ترك المناصفة التي بينهم من جبل عوف والحنانة والصلت والغور ، فلم يجب إلى ذلك وأظهر القوة فسار طغتكين إلى طبرية فنهبها وما حولها وسار منها نحو عسقلان وكانت للمصريين وبها عساكرهم كانوا قد سيروها لما عاد ملك القدس المتوفى عن مصر ، وكانوا سبعة آلاف فارس فاجتمع بهم طغتكين وأعلمه المقدم عليهم أن صاحبهم تقدم إليه بالوقوف عند رأي طغتكين والتصرف على ما يحكم به فأقاموا بعسقلان نحو شهرين ولم يؤثروا في الفرنج أثراً ، فعاد طغتكين إلى دمشق فاتاه الصريخ بأن مائة وثلاثين فارساً من الفرنج أخذوا حصناً من أعماله يعرف بالحبس ويرف بحصن جلدك سلمه إليهم المستحفظ به ، وقصدوا أذرعات فنهبوها فأرسل إليهم تاج الملوك

بوري بن طغتكين ، فانحازوا عنه إلى جبل هناك فنازلهم فاتاه ابوه ونهاه عنهم فلم يفعل وطمع فيهم فلما أيس الفرنج قاتلوا قتال مستقتل ، فنزلوا من الجبل وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزموهم بها وأسروا وقتلوا خلقاً كثيراً ، وعاد الفل إلى دمشق على أسوأ حال فسار طغتكين إلى حلب وبها أيلغازي فاستنجده وطلب منه التعاضد على الفرنج فوعده المسير معه فبينما هو بحلب أتاه الخبر بان الفرنج قصدوا حوران من أعمال دمشق ، فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا ، فاتفق رأي طغتكين وأيلغازي على عود طغتكين إلى دمشق وحماية بلاده وعود أيلغازي إلى ماردين وجمع العساكر والاجتماع على حرب الفرنج ، فصالح أيلغازي من يليه من الفرنج على ما تقدم ذكره وعبر إلى ماردين لجمع العساكر وكان ما نذكره سنة ثلاث

عشرة إن شاء الله تعالى .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انقطع الغيث وعدمت الغلات في كثير من البلاد وكان أشده بالعراق فغلت الأسعار وأجلى أهل السواد وتقوت الناس بالنخالة وعظم الأمر على أهل بغداد بما كان يفعله منكبرس بهم .

وفيها أسقط المسترشد بالله من الِإقطاع المختص به كل جور وأمر أن لا يؤخذ إلا ما جرت به العادة القديمة وأطلق ضمان غزل الذهب وكان صناع السقلاطون والممزج وغيرهم ممن يعمل منه ، يلقون شدة من العمال عليها وأذي عظيماً .

وفيها تأخر مسير الحجاج تأخراً أرجف بسببه انقطاع الحج من العراق فرتب الخليفة الأمير نظر خادم أمير الجيوش يمن وولاه من أمر الحج ما كان يتولاه أمير الجيوش ، وأعطاه من المال ما يحتاج إليه في طريقه وسيره فأدركوا الحج ، وظهرت كفاية نظر . وفيها وصل مركبان كبيران فيهما قوة ونجدة للفرنج بالشام . فغرقا وكان الناس قد خافوا ممن فيهما.

وفيها وصل رسول أيلغازي صاحب حلب وماردين إلى بغداد يستنفر على ،الفرنج ويذكر ما فعلوا بالمسلمين في الديار الجزرية وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا أميرها ابن عطير ، فسيرت الكتب بذلك إلى السلطان محمود .

وفيها نقل المستظهر إلى الرصافة وجميع من كان مدفوناً بدار الخلافة وفيهم جدة المستظهر أم المقتدي وكان وفاتها بعد

المستظهر ، ورأت البطن الرابع من أولادها .

وفيها كثر أمر العيارين بالجانب الغربي من بغداد فعبر إليهم نائب الشحنة في خمسين غلاماً أتراكاً فقاتلهم فانهزم منهم ، ثم عبر إليهم من الغد في مائتي غلام فلم يظفر بهم ونهب العيارون يومئذ قطفتا .

وفي هذه السنة في شعبان توفي أبو الفضل بكر بن محمد بن علي بن الفضل الأنصاري من ولد جابر بن عبدالله وهو من بلد بخارى وكان من أعيان الفقهاء الحنفية حافظاً للمذهب وتوفي أبو طالب الحسين بن محمد بن علي بن الحسن الزينبي نقيب

النقباء ببغداد ، في صفر ، واستقال من النقابة فوليها أخوه طراد وكان من أكابر الحنفية وروى الحديث الكثير .

وفيها في ذي الحجة توفي أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن مندة الأصبهاني المحدث المشهور من بيت الحديث وله فيه تصانيف حسنة .

وفيها توفي أبو الفضل أحمد بن الخازن وكان أديباً طريفاً له شعر حسن فمنه قوله وقد قصد زيارة صديق له فلم يره فادخله غلمانه إلى بستان في الدار وحمام فقال في ذلك :

وافيتُ منزلَهُ فلم أرَ صاحباً إلا تَلَقاني بوجهٍ ضاحك

والبشرُ في وجهِ الغلام نتيجة لمقدماتِ ضياءِ وجهِ المالك

ودخلتُ جنتَهُ وزرتُ جحيمه فشكرت رضوانا ورأفة مالك

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة
ذكر عصيان الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل بن محمد لما توفي والده بقلعة سرجهان ، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرم وأقطعه والده سنة أربع ساوة وآوة وزنجان وجعل أتابكه الأمير شيركير الذي تقدم ذكره في حصار قلاع الإسماعيلية ، فازداد ملك طغرل بما فتحه شيركير من قلاعهم فأرسل إليه السلطان محمود الأمير كنتغدي ليكون أتابكا له ومديراً لأمره وبحمله إليه ، فلما وصل إليه حسن له مخالفة أخيه وترك المجيء إليه واتفقا على ذلك وسمع السلطان محمود الخبر فأرسل شرف الدين أنو شروان ابن خالد ومعه خلع وتحف وثلاثون ألف دينار ، ووعد أخاه بإقطاع كثير زيادة على ماله إذا قصده ، واجتمع به ، فلم تقع الِإجابة إلى الاجتماع وأجاب كنتغدي بأننا في طاعة السلطان وأي جهة أراد قصدناها ومعنا من العساكر ما تقاوم بها من يرسم بقصده ، فبينما الخوض معهم في ذلك ركب السلطان محمود من باب همذان في عشرة آلاف فارس جريدة في جمادى الأولى ، وكتم مقصده وعزم على أن يكبس أخاه والأمير كنتغدي فرأى أحد خواصه تركياً من أصحاب الملك طغرل ، فأعلم السلطان به فقبض عليه فعلم رفيق كان معه الحال فسار عشرين فرسخاً في ليلة ووصل إلى الأمير كنتغدي وهو سكران فأيقظه بعد جهد وأعلمه الحال ، فقصد الملك طغرل فعرفه ذلك وأخذه متخفياً وقصد قلعة سميران فضلاً عن الطريق إلى قلعة سرجهان وكانا قد فارقاها وجمعا العساكر وكان ضلالهما هداية لهما إلى السلامة فإن السلطان محموداً جعل

طريقه على سميران ، وقال : إنها حصنهما الذي فيه الذخائر والأموال ، لاذا علما بوصوله إليها سار إليها فربما صادفهما في الطريق فسلما منه بما ظناه عطباً لهما ووصل السلطان إلى العسكر فكبسه ونهبه وأخذ من خزانة أخيه ثلاثمائة ألف دينار وذلك المال الذي أنقده له ، وأقام السلطان محمود بزنجان وتوجه منها إلى الري ونزل طغرل من سرجهان ولحق هو

وكنتغدي بكنجة وقصده أصحابه فقويت شوكته وتمكنت الوحشة بينه وبين أخيه محمود.

ذكر الحرب بين سنجر والسلطان محمود

في هذه السنة في جمادى الأولى، كانت حرب شديدة بين سنجر وابن أخيه السلطان محمود ونحن نذكر سياقة ذلك . قد ذكرنا سنة ثمان وخمسمائة مسير السلطان سنجر إلى غزنة وفتحها ، وما كان منه فيها ثم عاد عنها إلى خراسان فلما بلغه وفاة أخيه السلطان محمد وجلوس ولده السلطان محمود في السلطنة وهو زوج ابنة سنجر ، لحقه حزن عظيم لموت أخيه وأظهر من الجزع والحزن ما لم يسمع بمثله وجلس للعزاء على الرماد وأغلق البلد سبعة أيام وتقدم إِلى الخطباء بذكر السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك ، وكان سنجر يلقب بناصر الدين فلما توفي أخوه محمد تلقب بمعز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه ، وعزم على قصد بلد الجيل والعراق وما بيد محمود ابن أخيه فندم على قتل وزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر بن نظام الملك ، وكان سبب قتله أنه وحش الأمراء واستخف بهم فابغضوه وكرهوه وشكوا منه إلى السلطان وهو بغزنة ، فأعلمهم أنه يؤثر قتله وليس يمكنه فعل ذلك بغزنة وكان سنجر قد تغير على وزيره ، لأسباب منها : أنه أشار عليه بقصد غزنة فلما وصل إلى بست أرسل أرسلانشاه صاحبها إلى الوزير وضمن له خمسمائة ألف دينار ليثني سنجر عن قصده فأشار عليه بمصالحته والعود عنه وفعل مثل ذلك بما وراء النهر ، ومنها ، أنه نقل عنه أنه أخذَ من غزنة أموالاً جليلة عظيمة المقدار

، ومنها ما ذكر من إيحاشه الأمراء ، وغير هذه الأسباب . فلما عاد إلى بلخ قبض عليه وقتله وأخذ ماله وكان له من الجواهر والأموال مالا حد عليه والذي وجد له من العين ألفاً ألف دينار ، فلما قتله استوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزاق ابن أخي نظام الملك وبعرف بابن الفقيه إلا أنه لم تكن له منزلة ابن فخر الملك عند الناس في علو المنزلة فلما اتصل به وفاة أخيه ندم على قتله لأنه كان يبلغ به من الأغراض والملك مالا يبلغه بكثرة العساكر لميل الناس إليه ومحله عندهم .

ثم إن السلطان محمود أرسل إلى عمه سنجر شرف الدين أنو شروان بن خالد وفخر الدين طغايرك بن اليزن ومعهما الهدايا والتحف وبذل له النزول عن مازندران ،

وحمل مائتي ألف دينار كل سنة فوصلا إليه وأبلغاه الرسالة فتجهز ليسير إلى الري فأشار عليه شرف الدين أنوشروان يترك القتال والحرب فكان جوابه في ذلك أن ولد أخي صبي وقد تحكم وزيره والحاجب علي . فلما سمع السلطان محمود بمسير عمه نحو ووصول الأمير أنر في مقدمته إلى جرجان تقدم إلى الأمير علي بن عمر وهو أمير حاجب السلطان محمد ، وبعده صار أمير حاجب السلطان محمود ، بالمسير وضمن له جمعاً كثيراً من العساكر والأمراء ، فاجتمعوا في عشرة آلاف فارس فساروا إلى أن قاربوا مقدمة سنجر التي عليها الأمير أنر ، فراسله الأمير علي بن عمر يعرفه وصية السلطان محمد بتعظيم سنجر والرجوع إلى أمره ونهيه والقبول منه ، وأنه ظن أن سنجر يحفظ السلطنة على ولده السلطان محمود وأخذ عليها بذلك العهود ، فليس لنا أن نخالفه وحيث جئتم إلى بلادنا لا نحتمل ذلك ، ولا نقضي عليه ، وقد علمت أن معك خمسة آلاف فارس فأنا أرسل إليك أقل منهم لتعلم أنكم لا تقاومونا ولا تقوون بنا . فلما سمع الأمير أنر ذلك عاد عن جرجان ولحقه بقض عسكر السلطان محمود فاخذوا قطعة من سواده وأسروا عدة من أصحابه ، وكان السلطان محمود قد وصل إلى الري وهو بها . وعاد الأمير علي بن عمر إليه فشكره على فعله وأثنى عليه وعلى عسكره الذين معه وأشير على السلطان محمود بملازمة الري والمقام بها. وقيل إن عساكر خراسان إذا علموا بمقامك فيها لا يفارقون حدودهم ولا يتعدون ولايتهم ، فلم يقبل ذلك وضجر من المقام وسار إلى جرجان

ووصل السلطان محمود الأمير منكبرس من العراق في عشرة آلاف فارس ، والأمير منصور بن صدقة أخودبيس والأمراء البكجية وغيرهم ، وسار محمود إلى همذان وتوفي بها وزيره الربيب واستوزر أبا طالب السميري ، وبلغه وصول عمه سنجر إِلى الري فسار نحوه قاصداً قتاله فالتقيا بالقرب من ساوة ثاني جمادى الأولى من السنة وكان عسكر السلطان محمود قد عرفوا المفازة التي بين يدي عسكر سنجر وهي ثمانية أيام ، فسبقوهم إلى الماء وملكوه عليهم .

وكان العسكر الخراساني في عشرين ألفاً ومعهم ثمانية عشر فيلاً اسم كبيرها باذهو ، ومن الأمراء الكبار ولد الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخرازمشاه محمد والأمير أنز والأمير فماج ، واتصل به علاء الدولة كرشاسف بن كاكويه صاحب يزد وهو صهر السلطان محمد وسنجر على أختهما وكان أخص الناس بالسلطان محمد ، فلما

توفي السلطان محمود تأخر عنه فاقطع بلده لقراجة الساقي الذي صار صاحب بلاد فارس ، فسار حينئذ علاء الدولة إلى سنجر وهو من ملوك الديلم وعرف سنجر الأحوال والطريق إلى قصد البلاد وما فعله الأمراء من أخذ الأموال وما هم عليه من اختلاف الأهواء وحسن قصد البلاد، وكان عسكر السلطان محمود ثلاثين ألفاً ومن الأمراء الكبار الأمر علي بن عمر أمير حاجب والأمير منكبرس وأتابكه غزغلي وبنو برسق وسنقر البخاري وقراجة الساقي ومعه تسعمائة حمل من السلاح ، واستهان عسكر محمود بعسكر عمه بكثرتهم وشجاعتهم وكثرة خيلهم فلما التقوا ضعف نفوس الخراسانية لما رأوا لهذا العسكر من القوة والكثرة فانهزمت ميمنة سنجر وميسرته ، واختلط أصحابه واضطرب أمرهم وساروا منهزمين لا يلو؟ن على شيء ونهب من أثقالهم شيء كثير وقتل أهل السواد كثيراً منهم ووقف سنجر بين الفيلة في جمع من أصحابه وبإزائه السلطان محمود ومعه أتابكه غزغلي فالجأت سنجر الضرورة عند تعاظم الخطب عليه أن يقدم الفيلة للحرب وكان من بقي معه قد أشاروا عليه بالهزيمة فقال : إما النصر أو القتل ، وأما الهزيمة فلا. فلما تقدمت الفيلة ورآها خيل محمود تراجعت بأصحابها على أعقابها فأشفق سنجر على السلطان محمود في تلك الحال وقال لأصحابه لا تفزعوا الصبي بحملات الفيلة فكفوها عنهم وانهزم السلطان محمود ومن معه في القلب وأسر أتابكه غزغلي ، فكان يكاتب السلطان ويعده أنه يحمل إليه ابن أخيه ، فعاتبه على ذلك فاعتذر بالعجز فقتله وكان

طالماً قد بالغ في ظلم أهل همذان فعجل الله عقوبته ولما تم النصر والظفر للسلطان سنجر أرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه إليه ووصل الخبر إلى بغداد في عشرة أيام فأرسل دبيس بن صدقة إلى المسترشد بالله في الخطبة للسلطان سنجر فخطب له في السادس والعشرين من جمادي الأولى وقطعت خطبة السلطان محمود . وأما السلطان محمود فإنه سار من الكسرة إلى أصبهان ومعه وزيره أبو طالب السميرمي والأمير علي بن عمر وقراجة . وأما سنجر فإنه سار إلى همذان فرأى قلة عسكره واجتماع العساكر على ابن أخيه ، فراسله في الصلح وكانت والدته تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت ما لا حد عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم ، وكانت والدة سنجر هي جدة السلطان محمود فاجاب إلى قولها ، ثم كثرت العساكر عند سنجر منهم البرسقي . وكان عند الملك مسعود باذربيجان من حين خروجه عن بغداد إلى هذه الغاية فقوي

بهم ، فعاد الرسول وأبلغه عن الأمراء الذين مع السلطان محمود أنهم لا يصالحونه حتى يعود إلى خراسان ، فلم يجب إلى ذلك وسار من همذان إلى كرج وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح ووعده أن يجعله ولي عهده ، فأجاب إلى ذلك ، واستقر الأمر بينهما وتحالف عليه وسار السلطان محمود إلى عمه سنجر في شعبان فنزل على جدته والدة سنجر وأكرمه عمه وبالغ في ذلك وحمل له السلطان محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهراً وردها باطناً ، ولم تقبل منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر إلى سائر الأعمال التي بيده كخراسان وعزنة وما وراء النهر وغيرها من الولايات ، بان يخطب للسلطان محمود بعده وكتب إلى بغداد مثل ذلك وأعاد عليه جميع ما أخذ من البلاد سوى الري وقصد بأخذها أن تكون له في هذه الديار ا لئلا يحدث السلطان محمود نفسه بالخروج .

ذكر غزاة أيلغازي بلاد الفرنج

في هذه السنة سار الفرنج من بلادهم إلى نواحي حلب ، فملكوا بزاعة وغيرها وأخربوا بلد حلب ونازلوها ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً وخافهم أهلها خوفاً شديداً ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد لكنهم منعوا من ذلك وصانعوا الفرنج أهل حلب على أن يقاسموهم على أملاكهم التي بباب حلب ، فأرسل أهل البلد إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة فلم يغاثوا ، وكان الأمير أيلغازي صاحب حلب ببلد ماردين يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً وكان معه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان ارسلان بن المكر

صاحب بدليس وأرزن ، وسار بهم إلى الشام عازماً على قتال الفرنج فلما علم الفرنج قوة عزمهم على لقائهم وكانوا ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب بموضع يقال له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات ، وفي هذا الموضع قتل شرف الدولة مسلم بن قريش وطن الفرنج أن أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق فاخلدوا إلى المطاولة ، وكانت عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين وراسلوا أيلغازي يقولون له :لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك ، فاعلم أصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا بالركوب من وقته وقصدهم ففعل ذلك وسار إليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة ، ولم تعتقد الفرنج أن أحداً يقدم عليهم لصعوبة

المسلك إِليهم ، فلم يشعروا إلا وأوائل المسلمين قد غشيهم فحمل الفرنج حملة منكرة فولوا منهزمين فلقوا باقي العسكر متتابعة فعادوا معهم وجرى بينهم حرب شديدة ، وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم وأخذهم السيف من سائر نواحيهم فلم يفلت منهم غير نفر يسير وقتل الجميع وأسروا وكان في جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم وحملوا إلى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة ، وأما سيرجال صاحب أنطاكية فإنه قتل وحمل رأسه وكانت الوقعة منتصف شهر ربيع الأول فما مدح به أيلغازي في هذه الوقعة قول العظيمي :

قل ما تشاء فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيل

ثم تجمع من سلم من المعركة مع غيرهم فلقيهم أيلغازي أيضاً فهزمهم وفتح منهم حصن الأثارب وزردنا وعاد إلى حلب وقرر أمرها وأصلح حالها ثم عبر الفرات إلى ماردين .

ذكر وقعة أخرى مع الفرنج

في هذه السنة سار جوسلين صاحب تل باشر في جمع من الفرنج نحو مائتي فارس من طبرية فكبس طائفة من طي يعرفون ببني خالد ، فأخذهم وأخذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة فاخبروه أنهم من وراء الحزن بوادي السلالة بين دمشق وطبرية ، فقدم جوسلين مائة وخمسين فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارساً على طريق آخر وواعدهم

الصبح ليكبسوا بني ربيعة فوصلهم الخبر بذلك فأرادوا الرحيل فمنعهم أميرهم من بني ربيعة ، وكانوا في مائة وخمسين فارسا فوصلهم المائة وخمسون من الفرنج ،معتقدين أن جوسلين قد سبقهم أو سيدركهم ، فأضلَّ الطريق العدتان فاقتتلوا وطعنت العرب خيولهم ، فجعلوا أكثرهم رجالة وطهر من أميرهم شجاعة وحسن تدبير وجودة رأي فقتل من الفرنج سبعون وأسر اثنا عشر من متدميهم بذل كل واحد في فداء نفسه مالًا جزيلًا وعدة من الأسرى ، وأما جوسلين فإنه ضل في ، الطريق وبلغه خبر الوقعة فسار إلى طرابلس فجمع بها جمعاً وأسرى إلى – عسقلان فأغار على بلدها فهزمه المسلمون هناك فعاد مفلولاً .

ذكر قتل منكوبرس

في هذه السنة قتل الأمير منكوبرس الذي كان شحنة بغداد وقد تقدم حاله وكان سبب قتله أنه لما انهزم مع السلطان محمود وعاد إلى بغداد نهب عدة مواضع من طريق خراسان وأراد دخول بغداد فسير إليه دبيس بن صدقة من منعه ، فعاد وقد استقر الصلح بين السلطانين سنجر ومحمود فقصد السلطان سنجر فدخل إليه ومعه سيف وكفن ، فقال له : أنا لا أؤاخذ أحداً ، وسلمه إلى السلطان محمود وقال : هذا مملوكك فاصنع به ما تريد ، فأخذه وكان في نفسه منه غيظ شديد لأسباب منها ، أنه لما توفي السلطان محمد أخذ سريته والدة الملك مسعود قهراً قبل انقضاء عدتها ، ومنها ، جراءته عليه واستبداده بالأمور دونه ومسيره إلى شحنكية بغداد والسلطان كاره لذلك لكنه لم يقدر على منعه ، ومنها ، وما فعله بالعراق من الظلم . إلى غير ذلك فقتله صبراً وأراح العباد والبلاد من شره .

ذكر قتل الأمير علي بن عمر

في هذه السنة أيضاً قتل الأمير علي بن عمر حاجب السلطان محمد ، وكان قد صار أكبر أمير مع السلطان محمود وانقادت العساكر له فحسده الأمراء وأفسدوا حاله مع السلطان محمود وحسنوا له قتله ، فعلم فهرب إلى قلعة برجين وهي بين بروجرد وكرج وكان بها أهله وماله وسار منها في مائتي فارس إلى خوزستان ، وكانت بيد أقبوري بن برسق وابني أخويه أرغلي بن يلبكي وهندو بن زنكي فأرسل إليهم وأخذ عهودهم بأمانه وحمايته فلما سارا إليهم أرسلوا عسكراً منعوه من قصدهم فلقوه على

ستة فراسخ من تستتر ، فاقتتلوا فانهزم هو وأصحابه فوقف به فرسه فانتقل إلى غيره فتشبث ذيله بسرجه الأول فأزاله فعاود التعلق فأبطأ فأدركوه وأسروه وكاتبوا السلطان محموداً في أمره فأمرهم بقتله فقتل وحمل رأسه إليه .

ذكر الفتنة بين المرابطين وأهل قرطبة

في هذه السنة وقيل سنة أربع عشرة كانت فتنة بين عسكر أمير المسلمين علي بن يوسف وبين أهل قرطبة ، وسببها أن أمير المسلمين استعمل عليها أبا بكر يحمى بن رواد ، فلما كان يوم الأضحى خرج الناس متفرجين فمد عبد من عبيد أبي بكر يده إلى

امرأة فأمسكها فاستغاثت بالمسلمين فأغاثوها فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة ودامت جميع النهار والحرب بينهم قائمة على ساق فأدركهم الليل فتفرقوا فوصل الخبر إلى الأمير أبي بكر فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان فقالوا : المصلحة أن تقتل واحداً من العبيد الذي أثاروا الفتنة ، فأنكر ذلك وغضب منه وأصبح من الغد وأظهر السلاح والعدد يريد قتال أهل البلد . فركب الفقهاء والأعيان والشبان من أهل البلد وقاتلوه فهزموه وتحصَّن بالقصر فحصروه وتسلقوا إليه فهرب منهم بعد مشقة وتعب فنهبوا القصر وأحرقوا جميع دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة ، واتصل الخبر بأمير المسلمين فكره ذلك واستعظمه وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم فاجتمع له منهم جمع عظيم فعبر إليه سنة خمس عشرة وخمسمائة وحصر مدينة قرطبة فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمي دمه وحريمه وماله ، فلما رأى أمير المسلمين شدة قتالهم د.خل السفراء بينهم وسعوا في الصلح فأجابهم إلى ذلك على أن يغرم أهل قرطبة المرابطين ما نهبوه من أموالهم واستقرت القاعدة على ذلك وعاد عن قتالهم .

ذكر ملك علي بن سكمان البصرة

في هذه السنة استولى على البصرة وسبب ذلك أن السلطان محمداً كان قد أقطع البصرة الأمير آقسنقر البخاري فاستخلف بها نائباً يعرف بسنقر البياتي فأحسن السيرة إلى حد أن الماء بالبصرة ملح فأقام سفناً وجراراً للضعفاء والسابلة تحمل لهم الماء العذب ، فلما توفي السلطان محمد عزم هذا الأمير

سنقر على القبض على أمير اسمه غزغلي مقدم الأتراك الإِسماعيلية وهو مذكور . وحج بالناس على البصرة عدة سنين وعلى أمير آخر اسمه سنقر ألب وهو مقدم الأتراك البلدقية فاجتمعا عليه وقبضاه وقيداه وأخذا القلعة وما وجداه له ثم أن سنقر ألب أراد قتله فمنعه غزغلي فلم يقبل منه فلما قتله وثب غزغلي على سنقر ألب فقتله ونادى في الناس بالسكون واطمأنوا وكان أمير الحاج من البصرة هذه السنة أمير اسمه علي بن سكمان أحد الأمراء البلدقية . وكان في نفس غزغلي عليه حقد حيث تم الحج على يده ولأنه خاف أن يأخذ بثار سنقر ألب إذ هو مقدم البلدقية فأرسل غزغلي إلى عرب البرية يأمرهم بقصد الحجاج ونهبهم ، فطمعوا بذلك وقصدوا الحجاج فقاتلوهم وحماهم ابن سكمان وأبلى بلاءً حسناً ، وجعل يقاتلهم وهو

سائر نحو البصرة إلى أن بقي بينه وبين البصرة يومان فأرسل إليه غزغلي يمنعه من قصد البصرة فقصد العوني أسفل دجلة هذا والعرب يقاتلونه فلما وصل إلى العوني حمل على العرب حملة صادقة فهزمهم وسار غزغلي إِلى علي بن سكمان في عدد كثير . وكان علي في قلة فتحاربا واقتتلت الطائفتان فأصابت فرس غزغلي نشابة فسقط وقتل وسار علي إلى البصرة فدخلها وملك القلعة وأقر عمال آقسنقر البخاري ونوابه وكاتبه بالطاعة وكان عند السلطان وسأله أن يكون نائباً عنه بالبصرة فلم يجبه آقسنقر إلى ذلك فطرد حينئذ نواب آقسنقر ، واستولى على البلد وتصرف تصرف الأصحاب مستبداً واستقر فيه وأحسن السميرة إلى سنة أربع عشرة فسير السلطان محمود الأمير آقسنقر البخاري في عسكر إلى البصرة فأخذها من علي بن سكمان .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أمر السلطان سنجر بإعادة مجاهدا الدين بهروز إلى شحنكية العراق وكان بها نائب دبيس بن صدقة فعزل عنها . وفيها في ربيع الأول توفي الوزير ربيب الدولة وزير السلطان محمود ووزر بعده الكمال السميرمي وكان ولد ربيب الدولة وزير المسترشد فعزل واستعمل بعده عميد الدولة أبو علي بن صدقة ولقب جلال الدين ، وهذا الوزير وهو عم الوزير جلال الدين أبو الرضا صدقة الذي وزر للراشد والأتبك زنكي على ما نذكره . وفيها ظهر قبر إبراهيم الخليل وقبور ولديه إسحاق ويعقوب عليهم السلام بالقرب من البيت المقدس ورآهم كثير من

الناس لم تَبلُ أجسادهم وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضة (هكذا ذكره حمزة بن أسد التميمي في تاريخه) والله أعلم . وفيها في المحرم توفي قاضي القضاة أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني ومولده ني رجب سنة تسع وأربعين وأربعمائة وولي القضاء بباب الطاق من بغداد إلى الموصل وله من العمر ست وعشرون سنة وهذا شيء لم يكن لغيره . ولما توفي ولي قضاء القضاة الأكمل أبو القاسم علي بن أبي طالب الحسين بن محمد الزينبي وخلع عليه ثالث صفر . وفيها هدم تاج الخليفة على دجلة للخوف من انهدامه وهذا التاج بناه أمير المؤمنين المكتفي بعد سنة تسعين ومائتين . وفيها تأخر الحج فاستغاث الناس وأرادوا كسر المنبر بجامع القصر، فأرسل الخليفة الى دبيس بن صدقة ليساعد الأمير نظر على تسيير الحجاج فاجاب إلى ذلك . وكان خروجهم من بغداد

ثاني عشر ذي القعدة وتوالت عليهم الأمطار إِلى الكوفة . وفيها أرسل دبيس بن صدقة القاضي أبا جعفر عبد الواحد بن أحمد الثقفي قاضي الكوفة إلى أيلغازي بن أرتق بماردين يخطب ابنته فزوجها منه أيلغازي وحملها الثقفي معه إلى الحلة واجتاز بالموصل . وقيها في جمادى الأولى توفي أبو الوفا علي بن عقيل بن محمد بن عقيل شيخ الحنابلة في وقته ببغداد وكان حسن المناظرة سريع الخاطر وكان قد اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته على أبي الوليد فأراد الحنابلة قتله فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم أظهر التوبة حق تمكن من الظهور وله مصنفات من جملتها كتاب الفنون .

ثم دخلت سنة أربع عشرة وخمسمائة
ذكر عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والحرب بينهما

في هذه السنة في ربيع الأول كان المصاف بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود ،– ومسعود حينئذ له الموصل وأذربيجان وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أتابك فسعود بحثه على طلب السلطنة للملك مسعود ويعده : المساعدة وكان غرضه أن يختلفوا فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السلاطين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه على ما ذكرناه وكان قسيم الدولة البرسقي أتابك الملك فسعود قد فارق شحنكية بغداد. وقد أقطعه مسعود مراغة مضافة إلى الرحبة وبينه وبين دبيس عداوة محكمة فكاتب دبيس جيوش بك يشير عليه بقبض البرسقي وينسبه إلى الميل إلى السلطان محمود وبذل له مالًا كثيراً على قبضه فعلم البرسقي ذلك ففارقهم إلى السلطان محمود ، فأكرمه وأعلى محله وزاد في تقديمه واتصل الأستاذ أبو اسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني الطغرائي بالملك مسعود فكان ولده أبو المؤيد محمد بن أبي اسماعيل يكتّب الطغراء مع الملك فلما وصل والده استوزره مسعود بعد أن عزل أبا عّلي بن عمار صاحب طرابلس سنة ثلاث عشرة باب خوى فحسن ما كان دبيس يكاتب به من مخالفة السلطان محمود والخروج عن طاعته ، وظهر ما هم عليه من ذلك فبلغ السلطان محمود الخبر فكتب إليهم يخوفهم إن خالفوه ويعدهم الإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته ، فلم يصغوا إلى قوله واظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا

له التوب الخمس وكان ذلك على تفرق من عساكر السلطان محمود فقوي طمعهم وأسرعوا السير إليه ليلقوه وهو مخف من العساكر فاجتمع إليه خمسة عشر ألفاً فسار أيضاً إليهم فالتقوا عند عقبة أسد أباذ منتصف ربيع الأول واقتتلوا من بكرة إلى آخر النهار وكان البرسقي في مقدمة السلطان محمود وأبلى

يومئذ بلاء حسناً فانهزم عسكر الملك مسعود آخر النهار وأسر منهم جماعة كثيرة من أعيانهم ومقدميهم ، وأسر الأستاذ أبو إسماعيل وزير مسعود فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده فكانت وزارته سنة وشهراً وقد جاوز ستين سنة وكان حسن الكتابة والشعر يميل إِلى صنعة الكيمياء وله فيها تصانيف قد ضيعت من الناس أموالًا لا تحصى .

وأما الملك مسعود فإنه لما انهزم أصحابه وتفرقوا قصد جبلاً بينه وبين الوقعة اثني عشر فرسخاً فاختفى فيه ومعه غلمان صغار فأرسل ركابيه عثمان إلى أخيه يطلب له الأمان فسار إلى السلطان محمود وأعلمه حال أخيه مسعود فرقَّ له وبذل له الأمان وأمر آقسنقر البرسقي بالمسير إليه وتطبيب قلبه وإعلامه بعفوه وإحضاره ، فكان مسعود بعد أن أرسل يطلب الأمان قد وصل بقض الأمراء إليه وحسن له اللحاق بالموصل وكانت له ومعها أذربيجان وأشار عليه بمكاتبة دبيس بن صدقة ليجتمع به ويكثر جمعه ويعاود طلب السلطنة ، فسار معه من مكانه ووصل البرسقي فلم يره فأخبر بمسيره فسار في أثره وعزم على طلبه ولو إلى الموصل وجد في السير فأدركه على ثلاثين فرسخاً من مكانه ذلك ، وعرّفه عفو أنجيه عنه وضمن له ما أراد وأعاده إلى العسكر فأمر السلطان محمود العساكر باستقباله وتعظيمه ففعلوا ذلك ، وأمر السلطان أن ينزل عند والدته وجلس له وأحضره واعتنقا وبكيا وانعطف عليه محمود ووفى له بما بذله وخلطه بنفسه في كل أفعاله ، قعدّ ذلك من مكارم محمود .

وكانت الخطبة بالسلطنة لمسعود باذربيجان وبلد الموصل والجزيرة ثمانية وعشرين يوماً . وأما أتابكه جيوش بك فإنه سار إلى عقبة أساد أباذ وانتظر الملك مسعود فلم يره وانتظره بمكان آخر فلم يصل إليه فلما آيس منه سار إلى الموصل ونزل بظاهرها وجمع الغلات من السواد إليها ، واجتمع إليه عسكره فلما سمع بما فعله السلطان مع أخيه وأنه عنده علم أنه لا مقام له على هذا الحال فسار كأنه يريد الصيد فوصل إلى .الزاب وقال لمن معه : إنني قد عزمت على قصد السلطان محمود وأخاطر بنفسي فسار إليه فوصل وهو بهمذان ودخل إليه فطيب قلبه وأمنه وأحسن إليه . وأما دبيس فإنه كان بالعراق فلما بلغه خبر انهزام الملك مسعود نهب البلاد وأخربها وفعل فيها الأفاعيل القبيحة إلى أن أتاه رسول السلطان محمود وطيب قلبه فلم يلتفت .

لما كان منه ببغداد وسوادها من النهب والقتل والفساد ما لم يجر مثله أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله رسالة ينكر عليه ويأمره بالكف فلم يفعل ، فأرسل إليه السلطان وطيب قلبه وأمره بمنع أصحابه عن الفساد قلم يقبل وسار بنفسه إِلى بغداد ، وضرب سرادقه بإزاء دار الخلافة وأظهر الضغائن التي في نفسه وكيف طيف برأس أبيه وتهدد الخليفة وقال : إنك أرسلت تستدعي السلطان فإن أعدتموه وإلا فعلت وصنعت فأعيد جواب رسالته إن عود السلطان وقد سار عن همذان غير ممكن ولكنَّا نصلح حالك معه ، وكان الرسول شيخ الشيوخ إسماعيل فكفّ على أن تسير الرسل في الاتفاق بينه وبين السلطان وعاد عن بغداد في رجب ووصل السلطان في رجب إلى بغداد ، فأرسل دبيس زوجته ابنة عميد الدولة بن جهير إليه ومعها مال كثير وهدية نفيسة وسال الصفح عنه ، فأجيب إلى ذلك على قاعدة امتنع منها ولزم لجاجه ونهب جشيراً للسلطان فسار السلطان عن بغداد في شوال إلى قصد دبيس بالحلة واستصحب ألف سفينة ليعبر فيها ، فلما علم دبيس مسير السلطان أرسل يطلب الأمان فأمنه ، وكان قصده أن يغالطه ليتجهز فأرسل نساءه إلى البطيحة وأخذ أمواله وسار عن الحلة بعد أن نهبها إلى أيلغازي ملتجئاً إليه . ووصل السلطان إلى الحلة فلم ير أحداً فبات بها ليلة واحدة ، وعاد وأقام دبيس عند أيلغازي وتردد معه ثم إنه أرسل أخاه منصوراً في جيش من قلعة جعبر إلى العراق فنظر الحلة والكوفة وانحدر إلى البصرة وأرسل إلى يرنقش الزكوي يسأله أن يصلح حاله مع السلطان فلم يتم

أمره فأرسل إلى أخيه دبيس يعرفه ذلك ويدعوه إلى العراق ، فسار من قلعة جعبر إلى الحلة سنة خمس عشرة فدخلها وملكها وأرسل إلى الخليفة والسلطان يعتذر ويعد من نفسه الطاعة ، فلم يجب إلى ذلك ، وسيّرت إليه العساكر فلما قاربوه فارق الحلة ودخل إلى الأزير وهو نهر سنداد ووصل العسكر إليها وهي فارغة قد أجلى أهلها عنها وليس بها إقامة فكانت الميرة تنقل من بغداد وكان مقدم العسكر سعد الدولة يرنقش الزكوي فترك بالحلة خمسمائة فارس وبالكوفة جماعة أخرى تحفظ الطريق على دبيس ، وأرسل الى عسكر واسط يحفظ طريق البطيحة ففعلوا ذلك وعبر عسكر السلطان إلى دبيس فبقي بين الطائفتين نهر يخاض فيه مواضع ، فتراسل يرنقش ودبيس واتفقا على أن يرسل دبيس أخاه منصوراً رهينة ويلازم الطاعة ففعل وعاد العسكر إلى

بغداد سنة ست عشرة .

ذكر خروج الكرج إلى بلاد الإسلام وملك تفليس

في هذه السنة خرج الكرج وهم الخزر إلى بلاد الإسلام ، وكانوا قديماً يغيرون فامتنعوا أيام السلطان ملكشاه إلى آخر أيام السلطان محمد . فلما كان هذه السنة خرجوا ومعهم قفجاق وغرهم من الأمم المجاورة لهم فتكاتب الأمراء المجاورون لبلادهم واجتمعوا منهم الأمير أيلغازي ودبيس بن صدقة . وكان عنده والملك طغرل بن محمد وأتابكه كنتغدي . وكان لطغرل بلداران ونقجوان إلى أرس فاجتمعوا وساروا إلى الكرج فلما قاربوا تفليس . وكان المسلمون في عسكر كثير يبلغون ثلاثين ألفاً فالتقوا واصطف الطائفتان للقتال فخرج من القفجاق مائتا رجل ، فظن المسلمون إنّهم مستأمنون فلم يحترزوا منهم ودخلوا بينهم ورموا بالنشاب فاضطرب صف المسلين فظن من بعد أنها هزيمة فانهزموا وتبع الناس بعضهم بعضاً منهزمين ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضاً ، فقتل منهم عالم عظيم وتبعهم الكفار عشرة فراسخ يقتلون ويأسرون فقتل أكثرهم وأسروا أربعة آلاف رجل ونجا الملك طغرل وايلغازي ودبيس وعاد الكرج فنهبوا بلاد الإسلام وحصروا مدينة تفليس واشتد قتالهم لمن بها وعظم الأمر وتفاقم الخطب على أهلها ، ودام الحصار إلى سنة خمس عشر فملكوها عنوة ، وكان أهلها لما أشرفوا على الهلاك قد أرسلوا قاضيها وخطيبها إلى الكرج في طلب الأمان ، قلم تصغ الكرج إليهما فاخرقوا بهما ودخلوا البلد قهراً وغلبة واستباحوه ونهبوه ، ووصل المستنفرون منهم إلى بغداد مستصرخين ومستنصرين سنة ست

عشرة فبلغهم أن السلطان محموداً بهمذان فقصدوه واستغاثوا به فسار الى أذربيجان وأقام بمدينة تبريز شهر رمضان وأنفذ عسكراً إلى الكرج وسيرد ذكر ما كان منهم إن شاء الله تعالى .

ذكر غزوات أيلغازي هذه السنة

في هذه السنة أرسل المسترشد بالله خلعاً مع سديد الدولة بن الأنباري لنجم الدين أيلغازي وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج ويأمره بإبعاد دبيس عنه . وسار أبو علي بن عمار الذي كان صاحب طرابلس مع ابن الأنباري إلى أيلغازي ليقيم عنده يعبر الأوقات بما ينقم به عليه فاعتذر بإبعاد دبيس ووعد به ثم سار إلى الفرنج ، وكان قد جمع لهم جمعاً فالتقوا بموضع اسمه ذات البقل من أعمال جلب فاقتتلوا واشتد القتال

وكان الظفر له ثم اجتمع أيلغازي وأتابك طغتكين صاحب دمشق ، وحصروا الفرنج في معرفة قنسرين يوماً وليلة ثم أشار أتابك طغتكين بالإفراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين فربما ظفروا وكان أكثر خوفه من دبر خيل التركمان وجودة خيل الفرنج فافرج لهم أيلغازي فساروا عن مكانهم وتخلصوا ، وكان أيلغازي لا يطيل المقام في بلد الفرنج لأنه كان يجمع التركمان للطمع فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاة ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود فإذا طال مقامهم تفرقوا ولم يكن له من الأموال ما يفرقها فيهم . .

ذكر ابتداء أمر محمد بن تومرت وعبد المؤمن وملكهما

في هذه السنة كان ابتداء أمر المهدي أبي عبد الله محمد بن عبد اللّه بن تومرت العلوي الحسني ، وقبيلته من المصامدة تعرف بهرغة في جبل السوس من بلاد المغرب نزلوا به لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير ، ونذكر أمره وأمر عبد المؤمن هذه السنة إلى أن فرغ من ملك المغرب لنتبع بعض الحادثة بعضاً وكان ابن تومرت قد رحل في شبيبته إلى بلاد الشرق في طلب العلم وكان فقيهاً فاضلاً عالماً بالشريعة حافظاً للحديث عارفاً بأصولي الدين والفقه متحققاً بعلم العربية . وكان ورعاً ناسكاً ووصل في سفره إلى العراق واجتمع بالغزالي والكيا واجتمع بابي بكر الطرطوشي بالاسكندرية . وقيل أنه جرى له حديث مع الغزالي فيما فعله بالمغرب من –التملك فقال له الغزالي إن هذا لا يتمشى في هذه البلاد ولا يمكن وقوعه لأمثالنا؛ كذا قال بعض مؤرخي المغرب والصحيح أنه لمٍ يجتمع به فحج من هناك وعاد

إلي المغرب ولما ركب البحر من الإسكندرية مغربا غير المنكر في المركب وألزم من به بإقامة الصلاة وقراءة القران حتى انتهى إلى المهدية وسلطانها حينئذ يحيى بن تميم سنة خمس وخمسمائة فنزل بمسجد قبلي مسجد السبت وليس له سوى ركوة وعصا وتسامع به أهل البلد فقصدوه يقرأون عليه أنواع العلوم وكان إذا مر به منكر غيرة وأزاله فلما كثر ذلك منه أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه واحترمه وسأله الدعاء ورحل عن المدينة وأقام بالمنستير مع جماعة من الصالحين مدة وسار إلى بَجاية(1) ففعل فيها مثل

(ا) بجاية : بالكسر وتخفيف الجيم وألف وباء وهاء : – مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب .

ذلك ، فاخرج منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملالة فلقيه بها عبد المؤمن بن علي فرأى فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم والقيام بالأمر فسأله عن اسمه وقبيلته فاخبره أنه من قيس عيلان ثم من بني سليم فقال ابن تومرت : هذا الذي بشربه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : إن اللهّ ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس فقيل : من أي قيس ؟ فقال : من بني سليم ، فاستبشر بعبد المؤمن وسرَّ بلقائه . وكان مولد عبد المؤمن في مدينة تاجرة من أعمال تلمسان وهو من عائد قبيل من كومرة نزلوا بذلك الإقليم سنة ثمانين ومائة ولم يزل المهدي ملازماً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه إلى أن وصل إلى مراكش دار مملكة أمير المسلمين يوسف بن علي بن تاشفين فرأى فيها من المنكرات أكثر ما عاينه في طريقه فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فكثر أتباعه وحسنت ظنون الناس فيه ، فبينما هو في بعض الأيام في طريقه إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها من الجواري الحسان عدة كثيرة وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين يسفر نساؤهم وجوههن ويتلثم الرجال فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها ، فرفع أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فأحضره وأحضر الفقهاء ليناظروه فاخذ يعظه ويخوفه ، فبكى أمير المسلمين وأمر أن يناظره الفقهاء فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته في الذي فعله .

وكان عند أمير المسلمين بعض وزرائه يقال له مالك بن وهيب فقال : يا أمير المسلمين إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إنما يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلدني دمه فلم يفعل ذلك . فقال : إذ لم تقتله فاحبسه وخلده في السجن وإلا أثار شراً لا يمكن تلافيه ، فأراد حبسه فمنعه رجل من أكابر الملثمين يسمى بيان بن عثمان فأمر بإخراجه من مراكش فسار إلى أغمات (1) ولحق بالجبل فسار فيه حتى التحق بالسوس الذي فيه قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة سنة أربع عشرة ، فأتوه واجتمعوا حوله وتسامع به أهل تلك النواحي فوفدوا عليه وحضر

(1) اغمات : ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش ، وهي مدينتان متقابلتان ، كثيرة الخير ، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل ، ومن سجلماسة ثمان مراحل في بحر المغرب .

أعيانهم بين يديه وجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الِإسلام وما غير منها وما حدث من الظلم والفساد، وأنه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عمَّا هم فيه؛ فأقام على ذلك نحو سنة وتابعه هرغة قبيلته وسمى أتباعه الموحدين ، وأعلمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى ، فقام إليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن فقالوا :لا يوجد هذا إلا فيك فأنت المهدي فبايعوه على ذلك . فانتهى خبره إلى أمير المسلمين فجهز جيشاً من أصحابه وسيَّرهم إليه فلما قربوا من الجبل الذي هو فيه قال لأصحابه : إن هؤلاء يريدونني وأخاف عليكم منهم فالرأي أن أخرج بنفسي إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة : هل تخاف شيئاً من السماء ؟ فقال :لا بل من السماء تنصرون فقال ابن توفيان : فيأتنا كل من في الأرض ووافقه جميع قبيلته فقال المهدي : أبشروا بالنصر والظفر بهذه الشرذمة وبعد قليل تستأصلون دولتهم وترثون أرضهم . فنزلوا من الجبل ولقوا جيش أمير المسلمين فهزمهم وأخذوا أسلابهم وقوي ظنهم في صدق المهدي حيث ظفروا كما ذكر لهم . وأقبلت إليه أفواج القبائل من الحلل التي حوله شرقاً وغرباً وبايعوه . وأطاعه قبيلة هنتانة وهي من أقوى القبائل فأقبل عليهم واطمأن إليهم . وأتاه رسلِ أهل تينملل بطاعتهم وطلبوه إليهم فتوجه إلى جبل تينملل واستوطنه وألف لهم كتاباَ في التوحيد وكتاباً في العقيدة ونهج لهم طريق

الأدب بعضهم مع بعض والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن ، وهو يحرضهم على قتال عدوهم وإخراج الأشرار من بين أطهرهم . وأقام بتينملل وبنى له مسجداً خارج المدينة فكان يصلي فيه الصلوات هو وجمع مس معه عنده ويدخل البلد بعد العشاء الآخرة ، فلما رأى كثرة اهل الجبل وحصانة المدينة خاف أن يرجعوا عنه فامرهم أن يحضروا بغير سلاح ففعلوا ذلك عدة أيام ثم إنه أمر أصحابه أن يقتلوهم فخرجوا عليهم وهم غارون فقتلوهم في ذلك المسجد. ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر وسبى الحريم ونهب الأموال فكان عدة القتلى خمسة عشر ألفاً ،وقسم المساكن والأرض بين أصحابه وبنى على المدينة سوراً وقلعة على رأس جبل عالٍ .

وفي جبل تينملل أنهار جارية وأشجار وزروع والطريق إليه صب فلا جبل أحصن منه . وقيل : إنه لما خاف اهل تينملل نظر فرأى كثيراً من أولادهم شقراً زرقاً

والذي يغلب على الآباء السمرة وكان لأمير المسلمين عدة كثيرة من المماليك الفرنج والروم يغلب على ألوانهم الشقرة ، وكانوا يصعدون الجبل في كل عام مرة ويأخذون ما لهم فيه من الأموال المقررة لهم من جهة السلطان ، فكانوا يسكتون بيوت أهله لم ويخرجون أصحابها منها فلما رأى المهدي أولادهم سألهم : ما لي أراكم سمر الألوان وأرى أولادكم شقراً زرقاً ؟ فاخبروه خبرهم مع مماليك أمير المسلمين فقبح الصبر على هذا وأزرى عليهم وعظم الأمر عندهم فقالوا له : فكيف الحيلة في الخلاص منهم وليس لنا بهم قوة ؟ فقال : إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد وتفرقوا في مساكنكم فليقم كل رجل منكم إلى نزيله فليقتله واحفظوا جبلكم فإنه لا يرام ولا يقدر عليه ، فصبروا حتى حضر أولئك العبيد فقتلوهم على ما قرر لهم المهدي ، فلما فعلوا ذلك خافوا على نفوسهم من أمير المسلمين فامتنعوا في الجبل وسدوا ما فيه من طريق يسلك إليهم فقويت نفس المهدي بذلك .

ثم إن أمير المسلمين أرسل إليهم جيشاً قوياً فحصروهم في الجبل وضيقوا عليهم ومنعوا عنهم الميرة فقلت عند أصحاب المهدي الأقوات حتى صار الخبز معدوماً عندهم وكان يطبخ لهم كل يوم من الحساء ما يكفيهم فكان قوت كل واحد منهم أن يغمس يده في ذلك الحساء ويخرجها فما علق عليها قنع به ذلك اليوم ، فاجتمع أعيان أهل تينملل وأرادوا إصلاح الحال مع أمير المسلمين فبلغ الخبر بذلك المهدي بن تومرت وكان معه إنسان يقال له أبو عبد اللّه الونشريشي يظهر البله وعدم المعرفة بشيء

من القران والعلم ، وبزاقه يجري على صدره وهو كأنه معتوه ، ومع هذا فالمهدي يقربه ويكرمه ويقول : إن لته سراً في هذا الرجل سوف يظهر. وكان الونشريشي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السر بحيث لا يعلم أحد ذلك منه . فلما كان سنة تسع عشرة وخاف المهدي من أهل الجبل خرج يوماً لصلاة الصبح فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الثياب طيب الريح فأظهر أنه لا يعرفه وقال : من هذا؟ فقال : أنا أبو عبدالله الونشريشي . فقال له المهدي : إن أمرك لعجب ثم صلَى فلما فَرَغ من صلاته نادى في الناس فحضروا فقال : إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريشي فانظروه وحققوا أمره فلما أضاء النهار عرفوه. فقال له المهدي : ما قصتك قال : إنني إتاني الليلة ملك من السماء فغسل قلبي وعلمني –الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى المهدي بحضرة

الناس ثم قال له : نحن نمتحنك فقال : افعل . وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أي موضع سئل وكذلك الموطأ وغيره من كتب الفقه والأصول ، فعجب الناس من ذلك واستعظموه ثم قال لهم : إن الله تعالى قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي . فسار المهدي والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر وصلى المهدي عند رأسها وقال : يا ملائكة الله إن أبا عبد الله الونشريشي قد زعم كيت وكيت فقال من بها ضَدَقْ وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك – فلما قيل ذلك من البئر قال المهدي : إِن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة والمصلحة أن تطم لئلا يقع فيها نجاسة أو ما لا يجوز فالقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمها ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان فحضروا للتمييز فكان الونشريشي يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته فيقول : هذا من أهل النار فيلقى من الجبل مقتولاً وإلى الشاب الغر ومن لا يخشى فيقول : هذا من أهل الجنة فيترك على يمينه فكان عدة القتلى سبعين ألفاً فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمره . هكذا سمعت جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز وسمعت منهم من يقول : إن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في أهل الجبل أحضر شيوخ القبائل وقال لهم : إنكم لا يصحُّ لكم دين ولا يقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإخراج المفسد من بينكم ، فابحثوا

عن كل من عندكم من أهل الشر والفساد فانهوهم عن ذلك فان انت#هوا وإلا فاكتبوا أسماءهم وارفعوها إلن لأنظر في أمرهم . ففعلوا ذلك وكتبوا له أسماءهم من كل قبيلة ثم أمرهم بذلك مرة ثانية وثالثة ثم جمع المكتوبات فاخذ منها ما تكرر من الأسماء فأثبتها عنده ثم جمع الناس قاطبة ورفع الأسماء التي كتبها ودفعها إلى الونشريشي المعروف بالبشير وأمره أن يعرض القبائل ويجعل أولئك المفسدين في جهة الشمال ومن عداهم من جهة اليمين ، ففعل ذلك . وأمر أن يكتف من على شمال الونشريشي فكتفوا وقال : إن هؤلاء أشقياء قد وجب قتلهم . وأمر كل قبيلة أن يقتلوا أشقياءهم فقتلوا عن آخرهم ، فكان يوم التمييز .

ولما فرغ ابن تومرت من التمييز رأى أصحابه الباقين على نيات صادقة وقلوب متفقة على طاعته فجهز منهم جيشاً وسيرهم إلى جبال أغمات وبها جمع من المرابطين

فقاتلوهم ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وكان أميرهم أبو عبد الله الونشريشي وقتل منهم كثير ، وجرح عمر الهنتاتي وهو من أكبر أصحابه وسكن حسه ونبضه . فقالوا : مات فقال الونشريشي : أما إِنه لم يمت ولا يموت حتى يملك البلاد فبعد ساعة فتح عينيه وعادت قوته إليه فافتتنوا به وعادوا منهزمين إلى ابن تومرت فوعظهم وشكرهم على صبرهم . ثم لم يزل بعدها يرسل السرايا في أطراف بلاد المسلمين فإذا رأوا عسكراً تعلقوا بالجبل فأمنوا . وكان المهدي قد رتب أصحابه مراتب ، فم الأولى يسمون : أيت عشرة ، يعني أهل عشرة وأولهم عبد المؤمن ثم أبو حفص الهنتاتي وغيرهما وهم أشرف أصحابه وأهل الثقة عنده والسابقون إلى متابعته . والثانية : أيت خمسين ، يعني أهل خمسين وهم دون تلك الطبقة وهم جماعة من رؤساء القبائل . والثالثة : أيت سبعين ، يعني أهل سبعين وهم سبعين وهم دون التي قبلها . وسمى عامة أصحابه والداخلين في طاعته موحدين . فإذا ذكر الموحدون في أخبارهم فإنما يعني أصحابه وأصحاب عبد المؤمن بعده ولم يزل أمر ابن تومرت يعلو الى سنة أربع وعشرين فجهز المهدي جيشاً كثيفاً يبلغون أربعين ألفاً أكثرهم رجالة وجعل عليهم الونشريشي وسيَّر معهم عبد المؤمن فنزلوا وساروا إلى مراكش فحصروها وضيقوا عليها ، وبها أمير المسلمين .غلي بن يوسف ، فبقي الحصار عليها عشرين يوماً . فأرسل أمير المسلمين إلى متولي سجلماسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش . فجمع جيشاَ كثيراً وسار فلما قارب عسكر المهدي خرج أهل مراكش من غير الجهة

التي أقبل منها ، فاقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل وأصحاب المهدي ، فقتل الونشريشي أميرهم فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميراً عليهم . ولم يزل القتال بينهم عامة النهار وصلى عبد المؤمن صلاة الخوف الظهر والعصر والحرب قائمة ، ولم تصل بالمغرب قبل ذلك فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك – والبستان يسمى عندهم البحيرة ، فلهذا قيل وقعة البحيرة وعام البحيرة – وصاروا يقاتلون من جهة واحدة إلى أن أدركهم الليل وقد قتل من المصامدة أكثرهم . وحين قتل الونشريشي دفنه عبد المؤمن فطلبه المصامدة فلم يروه فيِ القتلى فقالوا رفعته الملائكة ولما جنهم الليل سار عبد المؤمن ومن سلم من القتلى إلى الجبل.

لما سير الجيش إلى حصار مراكش مرض مرضاً شديداً فلما بلغه خبر الهزيمة اشتد مرضه وسأل عن عبد المؤمن فقيل : هو سالم . فقال : ما ماتَ أحداً لأمر قائم وهر الذي يفتح البلاد . ووصى أصحابه باتباعه وتقديمه وتسليم الأمر إليه والانقباد له ولقبه أمير المؤمنين ثم مات المهدي وكان عمره إحدى وخمسيِن سنة ، وقيل : خمساً وخمسين سنة ومدة ولايته عشرين سنة وعاد عبد المؤمن إلى تينملل وأقام بها يتألف القلوب ويحسن إِلى الناس . وكان جواداً مقداماً في الحروب ثابتاً في الهزاهز إلى أن دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة فتجهز وسار في جيش كثير وجعل يمشي مع الجبل إلى أن وصل إلى تادلة فمانعه أهلها وقاتلوه فقهرهم وفتحها وسائر البلاد التي تليها . ومشى في الجبال يفتح ما امتنع عليه وأطاعه صنهاجة الجبل .

وكان أمير المسلمين قد جعل ولي عهده ابنه سير فمات فاحضر أمير المسلمين ابنه تاشفين من الأندلس وكان أميراً عليها فلما حضر عنده جعله ولي عهده سنة إحدى وثلاثين وجعل معه جيشاً وصار يمشي في الصحراء قبالة عبد المؤمن في الجبال . وفي سنة اثنتين وثلاثين كان عبد المؤمن في النواظر وهو جبل عال مشرف . وتاشفين في الوطأة ويخرج من الطائفتين قوم يتراءون ويتطاردون ولم يكن بينهما لقاء ، ويسمى عام النواظر . وفي سنة ثلاث وثلاثين توجه عبد المؤمن مع الجبل في الشعراء حتى انتهى إلى جبل كرناطة فنزل في أرض صلبة بين شجر ، ونزل تاشفين قبالته في الوطأة في أرض لا نبات فيها وكان

الفصل شاتياً فتوالت الأمطار أياماً كثيرة لا يقلع ، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة الوحل تسوخ فيها قوائم الخيل إلى صدورها ويعجز الرجلِ عن المشي فيها وتقطعت الطرق عنها فأوقدوا رماحهم وقرابيس سروجهم وهلكوا جوعاَ وبرداً وسوء حال . وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة صلبة في الجبل لا يبالون بشيء ، والميِرة متصلة إليهم وفي ذلك الوقت سير عبد المؤمن جيشاً إلى وجرة من أعمال تلمسان ومقدمهم أبو عبد الله محمد بن رقو ، وهو من أيت خمسين . فبلغ خبرهم إلى محمد بن يحص بن فانو متولي تلمسان فخرج في جيش من الملثمين فالتقوا بموضع يعرف بخندق الخمر فهزمهم جيش عبد المؤمن وقتل محمد بن يحيى وكثير من أصحابه وغنموا ما معهم ورجعوا . فترجمه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى

غمارة فأطاعوه قبيلة بعد قبيلة وأقام عندهم مدة وما برح يمشي في الجبال وتاشفين يحاذيه في الصحارى قلم يزل عبد المؤمن كذلك إلى سنة خمس وثلاثين . فتوفي أمير المسلمين علي بن يوسف بمراكش وملك بعده ابنه تاشفين فقوي طمع عبد المؤمن في البلاد إلا أنه لم ينزل الصحراء .

وفي سنة ثمان وثلاثين توجه عبد المؤمن إلى تلمسان فنازلها وضرب خيامه في جبل بأعلاها ونزل تاشفين على الجانب الأخر من البلد وكان بينهم مناوشة ، فبقوا كذلك إلى سنة تسع وثلاثين فرحل عبد المؤمن عنها إلى جبل تاجرة ووجه جيشاً مع عمر الهنتاني إلى مدينة وهران فهاجمها بغتة وحصل هو وجيشه فيها . فسمع بذلك تاشفين فسار إليها فخرج منها عمر ونزل تاشفين بظاهر وَهْران على البحر في شهر رمضان سنة تسع وثلاثين فجاءت ليلة سبع وعشرين منه –وهي ليلة يعظَمها أهل المغرب –وبظاهر وهران ربوة مطلة على البحر وبأعلاها ثنية يجتمع فيها المتعبدون وهو موضع معظم عندهم ، فسار إليه تاشفين في نفر يسير من أصحابه متخفياً لم يعلم به إلا النفر الذين معه وقصد التبرك بحضور ذلك الموضع مع أولئك الجماعة الصالحين ، فبلغ الخبر إلى عمر بن يحمى الهنتاني فسار لوقته بجميع عسكره إلى ذلك المتعبَد وأحاطوا به وملكوا الربوة ، فلما خاف تاشفين على نفسه أن يأخذوه ركب فرسه وحمل عليه إلى جهة البحر فسقط من جرف عال على الحجارة ورفعت جثته على خشبة ، وقتل كل من كان معه . وقيل : إن تاشفين قصد حصناً هناك على رابية وله

فيه بستان كبير فيه من كل الثمار فاتفق أن عمر الهنتاني مقدم عسكر عبد المؤمن سير سرية إلى ذلك الحصن يعلمهم بضعف من فيه ولم يعلموا أن تاشفين فيه فالقوا النار في بابه ،فاحترق فأراد تاشفين الهرب فركب فرسه فوثب الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور فسقط في النار فاخذ تاشفين فاعترف فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن ، فمات في الحال لأن رقبته كانت قد اندقت ، فصلب وقتل كل من معه وتفرق عسكره ولم يعد لهم جماعة وملك بعده أخوه إسحاق بن علي بن يوسف .

ولما قتل تاشفين أرسل عمر إلى عبد المؤمن بالخبر فجاء من تاجرة في يومه بجميع عسكره وتفرَّقَ عسكر أمير المسلمين واحتمى بعضهم بمدينة وَهران . فلما وصل عبد المؤمن دخلها بالسيف وقتل فيها ما لا يُحصى ثم سار إلى تِلمسان وهما مدينتان بينهما شوط فرس ، أحدهما تاجررت وبها عسكر المسلمين ، والأخر أقادير

وهي بناء قديم فامتنعت أقادير وغلقت أبوابها وتأهب أهلها للقتال . وأما تاجررت فكان فيها يحيى بن الصحراوية فهرب منها بعسكره إلى مدينة فاس . وجاء عبد المؤمن إليها فدخلها لما فر منها العسكر ولقيه أهلها بالخضوع والاستكانة فلم يقبل منهم ذلك وقتل أكثرهم ودخلها عسكره ورتب أمرها ورحل عنها وجعل على أقادير جيشاً يحصرها وسار إلى مدينة فاس سنة أربعين فنزل على جبل مطل عليها وحصرها تسعة أشهر وفيها يحمى بن الصحراوية وعسكره الذي فروا من تلمسان ، فلما طال مقام عبد المؤمن عمد . إلى نهر يدخل البلد فسكَّره بالأخشاب والتراب وغير ذلك فمنعه من دخول البلد وصار بحيرة تسير فيها السفن ثم هدم السكر فجاء الماء دفعة واحدة فخرب سور البلد وكل ما يجاور النهر من البلد أراد عبد المؤمن أن يدخل البلد فقاتله أهله خارج السور، فتعذر عليه ما قدره من دخوله .

وكان بفاس عبد الله بن خيار الجياني عاملًا عليها وغلى جميع أعمالها فاتفق هو وجماعة من أعيان البلد وكاتبوا عبد المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس فأجابهم إليه ، ففتحوا له باباً من أبوابها فدخله عسكره وهرب يحيى بن الصحراوية وكان فتحها آخر سنة أربعين وخمسمائة وسار إلى طنجة ورتب عبد المؤمن أمر مدينة فاس وأمر فنودي في أهلها من ترك عنده سلاحاً وعدة قتال حل دمه ، فحمل كل من في البلد ما عندهم من سلاح إليه فأخذه منهم ثم رجع إلى مكناسة ففعل بأهلها مثل ذلك وقتل من بها من الفرسان والأجناد. وأما العسكر الذي كان على تلمسان فانهم

قاتلوا أهليا ونصبوا المجانيق وأبراج الخشب وزحفوا بالدبابات . وكان المقدم على أبلها الفقيه عثمان فدام الحصار نحو سنة فلما اشتد الأمر على أهل البلد اجتمع جماعة منهم، وراسلوا الموحدين أصحاب عبد المؤمن بغير علم الفقيه عثمان وأدخلوهم البلد فلم يشعر أهله إلا والسيف يأخذهم فقتل أكثر أهله وسبيت الذرية والحريم ، ونهب من الأموال ما لا يحص ومن الجواهر ما لا تحدّ قيمته ومن لم يقتل بيع بأوكس الأثمان . وكان عدة القتلى مائة ألف قتيل . وقيل إن عبد المؤمن هو الذي حصر تلمسان وسار منها إلى فاس – والله أعلم –، وسيّر عبد المؤمن سرية إلى مكناسة فحصروها مدة ثم سلمها إليهم أهلها بالأمان فوفوا لهم وسار عبد المؤمن من فاس إلى مدينة سَلَا(أ) ففتحها وحضر عنده

(1) سلا : مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلا مدينة صغيرة يقال لها غَرنيطُوف .

جماعة من أعيان سبتة فدخلوا في طاعته فأجابهم إلى بذل الأمان وكان ذلك سنة إحدى وأر بعين.

ذكر ملك المؤمن مدينة مراكش

لما فرغ عبد المؤمن من فاس وتلك النواحي سار إلى مراكش وهي كرسي مملكة الملثمين وهي من أكبر المدن وأعظمها وكان صاحبها حينئذ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وهو صبي فنازلها . وكان نزوله عليها سنة إحدى وأربعين فضرب خيامه في غربيها على جبل صغير وبنى عليه مدينة له ولعسكره وبنى بها جامعاً وبنى له بناءً عالياً يشرف منه على المدينة ويرى أحوال أهلها وأحوال المقاتلين من أصحابه وقاتلها قتالاً كثيراً وأقام عليها أحد عشر شهراً فكان من بها من المرابطين يخرجون يقاتلونهم بظاهر البلد ، واشتدَ الجوع على أهله وتعذرت الأقوات عندهم ثم زحف إليهم يوماً وجعل لهم كميناً وقال لهم : إذا سمعتم صوت الطبل فاخرجوا وجلس هو بأعلى المنظرة التي بناها يشاهد القتال وتقدم عسكره وقاتلوا وصبروا ثم إنهم انهزموا لأهل مراكش ليتبعوهم إلى الكمين الذي لهم فتبعهم الملثمون إلى أن وصلوا إلى مدينة عبد المؤمن فهدموا أكثر سورها وصاحت المصامدة بعبد المؤمن ليأمر بضرب الطبل ليخرج الكمين فقال لهم : اصبروا حتى يخرج كل طامع في البلد . فلما خرج أكثر أهله أمر بالطبل فضرب وخرج الكمين عليهم ورجع المصامدة المنهزمون إلى الملثمين فقتلوهم كيف شاؤوا وعادت الهزيمة على الملثمين فمات في زحمة الأبواب ما لا يحصيه إلا الله سبحانه ، وكان شيوخ الملثمين يدبرون دولة إسحاق بن علي

بن يوسف لصغر سنَّهِ فاتفق أن إنساناً من جملتهم يقال له عبد الله بن أبي بكر خرج إلى عبد المؤمن مستأمناً وأطلعه على عوراتهم وضعفهم فقوي الطمع فيهم واشتدَّ عليهم البلاء ونصب عليهم المنجنيقات والأبراج ، وفَنِيَتْ أقواتهم وأكلوا دوابهم . ومات من العامة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان ، فانتن البلد من ريح الموتى ، وكان بمراكش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم فجاؤوا إليهم نجدة فلما طال عليهم الأمر راسلوا عبد المؤمن يسألون الأمان فأجابهم إليه ففتحوا له باباً من أبواب البلد يقال له أغمات ، فدخلت عساكره بالسيف وملكوا المدينة عنوة وقتلوا من وجدوا ووصلوا إلى دار أمير المسلمين فاخرجوا الأمير إسحاق وجميع من معه من أمراء المرابطين فقتلوا .

وجعل إسحاق يرتعدَ رغبة في البقاء ويدعو لعبد المؤمن ويبكي ، فقام إليه الأمير سير بن الحاج وكان إلى جانبه مكتوفاً فبَزَقَ في وجهه وقال : تبكي على أبيك وأمك اصبر صبر الرجال فهذا رجل لا يخاف ولا يدين بدين ، فقام الموحدون إليه بالخشب فضربوه حتى قتلوه وكان من الشجعان المعروفين بالشجاعة .

وقدّم إسحاق على صغر سنه فضربت عنقه سنة اثنتين وأربعين وهو آخر ملوك المرابطين وبه انقرضت دولتهم وكانت مدة ملكهم سبعين سنة وولي منهم أربعة يوسف ، وعلي ، وتاشفين ، وإسحاق ولما فتح عبد المؤمن مراكش أقام بها واستوطنها واستقر ملكه ، ولما قتل عبد المؤمن من أهل مراكش فاكثر فيهم القتل ، اختفى كثير من أهلها . فلما كان بعد سبعة أيام أمر فنودي بأمان من بقي من أهلها فخرجوا فأراد أصحابه المصامدة قتلهم فمنعهم وقال : هؤلاء صناع وأهل الأسواق من ننتفع به ، فتُرِكوا وأمر بإخراج القتلى من البلد فأخرجوهم وبنى بالقصر جامعاً كبيراً وزخرفه فاحسن عمله ، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب – فلا جرم سلط الله عليه في عقابه من أربى في الأخذ عليه وزاد، فتبارك الحي الدائم الملك الذي لا يزول ملكه وهذه سنة الدنيا فأفٍ لها ثم أفٍ نسأل الله أن يختم أعمالنا بالحسنى ويجعل خير أيامنا يوم نلقاه بمحمد وآله .

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة سار بعض المرابطين من الملثمين إلى دَكالَة(أ) فاجتمع إليه قبائلها وصاروا يغيرون على أعمال مراكش ، وعبد المؤمن لا يلتفت إليهم فلما كثر ذلك منهم سار إليهم سنة أربع وأربعين فلما سمعت دكالة بذلك انحشروا كلهم إلى ساحل البحر في مائتي ألف راجل وعشرين ألف فارس وكانوا موصوفين بالشجاعة، وكان مع عبد المؤمن من الجيوش ما يخرج عن الحصر وكان الموضع الذي فيه دكالة كثير الحجر والحزونة فكمنوا فيه كمناء ليخرجوا على عبد المؤمن إذا سلكه ، فمن الاتفاق الحسن له أنه قصدهم من غير الجهة التي فيها الكمناء فانحل عليهم ما قدروه وفارقوا ذلك الموضع فأخذهم السيف فدخلوا البحر فقُتل

(1) دكالة : بفتح أوله وتشديد ثانيه ، بلد بالمغرب يسكنه البربر.

أكثرهم ، وغُنمت إبلهم وأغنامهم وأموالهم وَشبي نساؤهم وذراريهم فبيعَتْ الجارية الحسناء بدراهم بصيرة . وعاد عبد المؤمن إلى مراكش مظفراً منصوراً وثبت ملكه وخافه الناس في جميع المغرب وأذعنوا له بالطاعة .

ذكر حصر مدينة كَتندة.

في هذه لم السنة يعني سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج ملك من ملوك الفرنج بالأندلس يقال له ابن ردمير ، فسار حتى انتهى الى كتندة وهي بالقرب من مرسية في شرق الأندلس فحصرها وضيق على أهلها . وكان أمير المسلمين علي بن يوسف حينئذ بقرطبة ومعه جيش كثير من المسلمين والأجناد المتطوعة فسيّرهم إلى ابن ردمير فالتقوا واقتتلوا أشد القتال وهزمهم ابن ردمير هزيمة منكرة وكثر القتل في المسلمين وكان فيمن قتل أبو عبد الله بن الفراء قاضي المرية وكان من العلماء العاملين والزهاد في الدنيا العادلين في القضاء .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كسر بلك بن أرتق عفراس الرومي وقتل من الروم خمسة آلاف رجل على قلعة سرمان من بلد يدكان وأسر عفراس وكثير من عسكر . وفيها أغار جوسلين الفرنجي صاحب الرها على جيوش العرب والتركمان ، وكانوا نازلين بصفين غربي الفرات ، وغنم من أموالهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً ولما عاد خرب بزاعة . وفيها تسلم أتابك طغتكين صاحب دمشق مدينة تدمير والشقيف . وفيها أمر السلطان محمود الأمير جيوش بك بالمسير الى حرب أخيه طغرل فسار إليه فسمع طغرل وأتابكه

كنتغدي ذلك فسار إلى كنجة من بين يدي العسكر ولم يجر قتال . وفيها في المحرم توفي خالصة الدولة أبو البركات أحمد بن عبد الوهاب بن السبي صاحب المخزن ببغداد وولي مكانه الكمال أبو الفتوح حمزة بن طلحة المعروف بابن ، البقشلام والد علم الدين الكاتب المعروف . وفي جمادى الأولى منها توفي أبو سعد عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري الإمام ابن الإمام وكان أخذ العلم من قرابته والطريقة أيضاً ثم استفاد أيضاً من إمام الحرمين أبي المعالي الجويني وسمع الحديث ،من جماعة ورواه ، وكان حسن –الوعظ سريع الخاطر ولما توفي جلس الناس في البلاد البعيدة للجزاء به حتى في بغداد برباط ،شيخ الشيوخ .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وخمسمائة
ذكر إقطاع البرسقي الموصل

في هذه السنة في صفر أقطع السلطان محمود مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار وغيرها الأمير آقسنقر البرسقي . وسبب ذلك أنه كان في خدمة السلطان محمود ناصحاً له ملازماً له في حروبه كلها . وكان له الأثر الحسن في الحرب المذكورة بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود ، وهو الذي أحضر الملك مسعود عند أخيه السلطان محمود فعظم ذلك عند السلطان محمود ولما حضر جيوش بك عند السلطان محمود وبقيت الموصل بغير أمير ولي عليها البرسقي وتقدم إلى سائر الأمراء بطاعته وأمره بمجاهدة الفرنج ، وأخذ البلاد منهم فسار إليها في عسكر كثير وملكها وأقام يدبر أمورها ويصلح أحوالها .

ذكر وفاة الأمير علي وولاية ابنه الحسن إفريقية

ر في هذه السنة توفي الأمير علي بن يحيى بن تميم صاحب أفريقية في العشر الأخير من ربيع الآخر . وكان مولده بالمهدية وقد تقدم من حروبه وأعماله ما يستدل به على علو همته ، ولما توفي ولي الملك بعده ابنه الحسن بعهد أبيه وقام بأمر دولته صندل الخصي لأنه كان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة لا يستقل بتدبير الملك فقام صندل في الحفظ والاحتياط فلم تطل أيامه حتى توفي فوقع الاختلاف بين أصحابه وقواده كل منهم يقول أنا المقدم على الجميع وبيدي الحل والشد فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له أبو عزيز موفق فصلحت الأمور.

في هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان قتل أمير الجيوش الأفضل بن بدر

الجمالي وهو صاحب الأمر والحكم بمصر. وكان ركب إِلى خزانة السلام ليفرقه على الأجناد على جاري العادة في الأعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والخيالة ، فتأذى بالغبار ، فأمر بالبعد عنه وسار منفرداً معه رجلان فصادفه رجلان بسوق الصياقلة فضرباه بالسكاكين فجرحاه وجاء الثالث من ورائه فضربه بسكين في خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه إلى دار الأفضل فدخل عليه الخليفة وتوجع له وسأله عن الأموال فقال : أما الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة الكاتب يعرفه وكان من في أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة ، وأما الباطن فابن البطائحي يعرفه . فقالا : صدق . فلما توفي الأفضل ثقل من أمواله ما لا يعلمه إلا الله تعالى وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً ، ووجد له من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة القليلة الوجود ما لا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده وكان عمره سبعاً وخمسين سنة ، وكانت ولايته بعد أبيه ثمانية وعشرين سنة منها آخر أيام المستنصر وجميع أيام المستعلي إلى هذه المسنة من أيام الأمر . وكان الإِسماعيلية يكرهونه لأسباب منها تضييعه على إمامهم وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم ومنها ترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهي عن معارضتهم وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها فكثر الغرباء ببلاد مصر ، وكان حسن السيرة عادلاً .

حكي أنه لما قتل وظهر الظلم بعده اجتمع جماعة واستغاثوا

إلى الخليفة وكان من جملة قولهم إنهم لعنوا الأفضل فسألهم عن سبب لعنهم إياه فقالوا : إنه عدل وأحسن السيرة ، ففارقنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلده لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا ، فاحسن الخليفة إليهم وأمر بالِإحسان إلى الناس . ومنها أن صاحبه الأمر بأحكام الله صاحب مصر وضع عليه . وسبب ذلك ما ذكرناه قبل ففسد الأمر بينهما ،فأراد الآمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام أو في أيام الأعياد ، فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد وهو الذي ولي الأمر بعده بمصر وقال له : في هذا الفعل شناعة وسوء سمعة لأنه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة ولم يعلم الناس منهم إلا النصح لنا والمحبة لدولتنا ، وقد سار ذلك في أقطار البلاد فلا يجوز أن يظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلا بد وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه في منصبه متمكن أو ما يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل فعلنا بهذا فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على

نفسه ، وإن دخل علينا كان خائفاً مستعداً للامتناع وفي هذا الفعل منهم ما يسقط المنزلة والرأي أن تراسل أبا عبد الله بن البطائحي فإنه الغالب على أمر الأفضل والطلع على سره وتعده أن توليه منصبه وتطلب منه أن يدير الأمر في قتله لمن يقاتله إذا ركب فإذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأطهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الأحدوثة ففعلوا ذلك ، فقتل كما ذكرناه ولما قتل ولي بعده أبو عبد الله بن البطائحي الأمر ولقب المأمون وتحكم في الدولة فبقي كذلك حاكماً في البلاد إلى سنة تسع عشرة فصلب كما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عصيان سليمان بن أيلغازي على أبيه

في هذه السنة عصا سليمان بن أيلغازي بن أرتق على أبيه بحلب وقد جاوز عمره عشرين سنة حمله على ذلك جماعة من عنده فسمع والده الخبر ، فسار مجداً لوقته فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج إليه معتذرا فامسك عنه وقبض على من كان أشار عليه بذلك ، منهم أمير كان قد التقطه أرتَق والد أيلغازي ورباه اسمه ناصر فقلع عينيه وقطع لسانه . ومنهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص كان قد قدمه أيلغازي على أهل حلب وجعل إليه الرياسة فجازاه بذلك وقطع يديه ورجليه وسمّل عينيه فمات . وأحضر ولده وهو سكران فأراد قتله فمنعه رقة الوالد فاستبقا. فهرب إلى دمشق فأرسل طغتكين يشفع فيه فلم يجبه إلى ذلك واستناب بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق ولقبه بدر الدولة وعاد إلى ماردين .

ذكر إقطاع ميافارقين أيلغازي

في هذه السنة أقطع السلطان محمود مدينة ميافارقين للأمير أيلغازي . وسبب ذلك أنه أرسل ولده حسام الدين تمرتاش وعمره سبع عشرة سنة إلى السلطان ليشفع في دبيس بن صدقة ويبذل عنه الطاعة ، وحمل الأموال والخيل وغيرها . وأن يضمن الحلة كل يوم بألف دينار وفرس وكان المتحدث عنه القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم بن الشهرزوري . فتردد الخطاب في ذلك ولم ينفصل حال ؛ فلما أراد العود أقطع السلطان إياه مدينة ميافارقين وكانت مع الأمير سكمان صاحب خلاط فتسلمها

أيلغازي وبقيت في يده ويد أولاده إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة، وسنذكر ذلك إن شاء الله .

ذكر حصر بلك بن بهرام الرها وأسر صاحبها

في هذه السنة سار بلك بن بهرام ولد أخي أيلغازي إلى مدينة الرها فحصرها وبها الفرنج ، وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها فجاءه إنسان تركماني وأعلمه أن جوسلين صاحب الرها وسروج قد جمع من عنده من الفرنج وهو عازم على كبسه ؛ وكان قد تفرق عن بلك أصحابه وبقي في أربعمائة فارس فوقف مستعدا لقتالهم وأقبل الفرنج فس لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج وصلوا إلى أرض قد نضب عنها الماء ، فصارت وحلاً غاصت خيولهم فيه فلم تتمكن مع ثقل السلاح والفرسان من الإسراع والجري فرماهم أصحاب بلك بالنشاب فلم يفلت منهم أحد وأسر جوسلين وجعل في جلد جمل وخيط عليه ، وطلب منه أن يسلم الرها فلم يفعل وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة وأسوى كثيرة فلم يجبه إلى ذلك وحمله إلى قلعة خَرتَبرت فسجنه بها ، وأسر معه ابن خالته واسمه كليام وكان من شياطين الكفار وأسر أيضاً جماعة من فرسانه المشهورين فسجنهم معه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفيت جدة السلطان محمود لأبيه وهي والدة السلطان سنجر ، وكانت تركية تعرف بخاتون السفرية ، وكان موتها بمرو فجلسن محمود ببغداد للعزاء فيها وكان عزاء لم يشاهد مثله الناس . وفيها توفي الخطير محمد بن الحسين

الميبذي ببلاد فارس وهو في وزارة الملك سلجوق ابن السلطان محمد ، وكان قديماً وزر للسلطانين بركيارق ومحمد وكان جواداً حليماً سمع أن الأبيوردي هجاه فلما سمع الهجو مضه فعضَّ على إبهامه وصفح عنه وخلع عليه ووصله . وفيها توفي الشهاب أبو المحاسن عبد الرزاق عبد الله وزير السلطان سنجر وهو ابن أخي نظام الملك وكان يتفقه قديماً على إمام الحرمين الجويني فكان يفتي ويوقع ووزر بعده أبو طاهر سعد بن علي بن عيسى القمي ، وتوفي بعد شهور فوزر بعده عثمان القمي . وفيها في جمادى الأولى أوقع أتابك طغتكين بطائفة من الفرنج فقتل منهم وأسر وأرسل من الأسرى والغنيمة

للسلطان وللخليفة . وفيها تضعضع الركن اليماني من البيت الحرام زاده الله شرفاً من زلزلة وانهزم بعضه وتشعث بعض حرم النبي صلى الله عليه وسلم وتشعث غيره من البلاد وكان بالموصل كثير منها .

وفيها احترقت دار السلطان كان قد بناها مجاهد الدين بهروز للسلطان محمد ففرغت قبل وفاته بيسير ، فلما كان الآن احترقت وسبب الحريق أن جارية كانت تختضب ليلاً فاسندت شمعة إلى الخيش فاحترق وعلقت النار منه في الدار واحترق فيها من زوجة السلطان محمود بنت السلطان سنجر ما لأحد عليه من الجواهر والحلى والفرش والثياب وأقيم الغسالون يخلصون الذهب وما أمكن تخليصه ، وكان الجوهر جميعه قد هلك إلا الياقوت الأحمر وترك السلطان الدار لم تجدد عمارتها وتطير منها لأن أباه لم يتمتع بها ثم احترق فيها من أموالهم الشيء العظيم . واحترق قبلها بأسبوع جامع أصبهان وهو من أعظم الجوامع وأحسنها أحرقه قوم من الباطنية ليلأ، وكان السلطان قد عزم على أخذ حق البيع وتجديد المكوس بالعراق بإشارة الوزير السميرمي عليه بذلك فتجدد من هذين الحريقين ما هاله وأتعظ فاعرض عنه . وفيها في ربيع الآخر انقض كوكب عشاء وصار له نور عظيم وتفرق منه أعمدة عند انقضاضه وسمع عند ذلك صوت هدة عظيمة كالزلزلة . وفيها طهر بمكة إنسان علوي وأمر بالمعروف فكثر جمعه ونازع أمير مكة ابن أبي هاشم وقوي أمره وعزم على أن يخطب لنفسه فعاد ابن أبي هاشم وظفر به ونفاه عن الحجاز

إلى البحرين وكان هذا العلوي من فقهاء النظامية ببغداد . وفيها ألزم السلطان أهل الذمة ببغداد بالغيار فجرى فيه مراجعات انتهت إلى أن قرر عليهم للسلطان عشرون ألف دينار وللخليفة أربعة آلاف دينار. وفيها حضر السلطان محمود وأخوه الملك مسعود عند الخليفة فخلع عليهما وعلى جماعة من أصحاب السلطان منهم وزيره أبو طالب السميرميِ وشمس الملك عثمان بن نظام الملك والوزير أبو نصر أحمد بن محمد بن حامد المستوفي وعلى غيرهم في الأمراء . وفيها في ذي القعدة وهو الحادي والعشرون من كانون الثاني سقط بالعراق جميعه من البصرة إلى تكريت ثلج كثير وبقي علن الأرض خمسة عشر يوماً وسمكه ذراع وهلكت أشجار النارنج والأترج والليمون فقال فيه بعض الشعراء:

ـ يا صدور الزمانِ ليس بوفر ما رأيناه في نواحي العراق

إنّما ظلمُكُم سائرَ الخلقِ فشابتْ دوائبُ الأفاق

وفيها هـبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام فأهلكت كثيراً من الناس وغيرهم من الحيوانات. وفيها توفي أبو مجمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري صاحب المقامات المشهورة وهزارسب بن عوض الهروي وكان قد سمع الحديث كثيراً.

ثم دخلت سنة ست عشرة وخمسمائة
ذكر طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود

وفي المحرم من هذه السنة أطاع الملك طغرل أخاه السلطان محموداً وكان قد خرج عن طاعته كما ذكرناه وقصد أذربيجان في السنة الخالية ليتغلب عليها ، وكان أتابكه كنتغدي يحسن له ذلك ويقويه عليه فاتفق أنه مرض وتوفي في شوال سنة خمس عشرة ، وكان الأمير آقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة عند السلطان محمود ببغداد فاستأذنه في المضي إلى أقطاعه فاذن له فلما سار عن السلطان ظن أنه يقوم مقام كنتغدي من الملك طغرل فسار إليه واجتمع به ، وأشار عليه بالمكاشفة لأخيه السلطان محمود وقال له : إذا وصلت إلى مراغة اتصل بك عشرة آلاف فارس وراجل فسار معه فلما وصلوا إلى أردبيل أغلقت أبوابها دونهم فساروا عنها إلى قريب تبريز فاتاهم الخبر أن السلطان محموداً سير الأمير جيوش بك إلى أذربيجان وأقطعه البلاد وأنه نزل كراغة في عسكر كثيف من عند السلطان ، فلما تيقنوا ذلك عدلوا إلى خونج وانتقض عليهم ما كانوا فيه . وراسلوا الأمير شيركير الذي كان أتابك طغرل أيام أبيه يدعونه إلى إنجادهم وقد كان كنتغدي قبض عليه بعد موت السلطان محمد– على ما ذكرناه – ثم أطلقه السلطان سنجر فعاد إلى إقطاعه أبهر وزنجان وكاتبوه فأجابهم واتصل بهم وسار معهم إلى أبهر فلم يتم لهم ما أرادوا فراسلوا السلطان بالطاعة فأجابهم إلى ذلك فاستقرت القاعدة أول هذه السنة وتمت .

ذكر حال دبيس بن صدقة وما كان منه

قد ذكرنا سنة أربع عشرة حال دبيس بن صدقة وصلحه على

يد يرنقش الزكوي ومقامه بالحلة ، وعود يرنقش إلى السلطان ومعه منصور بن صدقة أخو دبير وولده

رهينة فلما علم الخليفة بذلك لم يرض به وراسل السلطان محموداً في إبعاد دبيس عن العراق إلى بعض النواحي . وتردد الخطاب في ذلك وعزم السلطان على المسير إلى همذان فأعادا الخليفة الشكوى من دبيس وذكر أنه يطالب الناس بحقوقه منها قتل أبيه ، وأن يحضر السلطان آقسنقر البرسقي من الموصل ويوليه شحنكية بغداد والعراق ، ويجعله في وجه دبيس ففعل السلطان ذلك وأحضر البرسقي فلما وصل إليه زوجه والدة الملك مسعود وجعله شحنة بغداد وأمره بقتال دبيس إن تعرض إلى البلاد. وسار السلطان عن بغداد في صفر من هذه السنة وكان مقامه ببغداد سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً فلما فارق بغداد والعراق تظاهر دبيس بأمور تأثر بها المسترشد بالله وتقدم إلى البرسقي بالمسير إليه وإزعاجه عن الحلة ، فأرسل البرسقي إلى الموصل وأحضر عساكره وسار إلى الحلة وأقبل دبيس نحوه فالتقوا عند نهر بشير شرفي الفرات واقتتلوا فانهزم عسكر البرسقي . وكان سبب الهزيمة أنه رأى في ميسرته خللاً وبها الأمراء البكجية فأمر بالقاء خيمته وأن تنصب عند الميسرة ليقوى قلوب من بها ، فلما رأوا الخيمة وقد سقطت ظنوها عن هزيمة فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي . وقيل : بل أعطى رقعة فيها إن جماعة من الأمراء منهم اسماعيل البكجي يريدون الفتك به فانهزم وتبعه العسكر ودخل بغداد ثاني ربيع الآخر . وكان في جملة العسكر نصر بن النفيس بن مهذب الدولة أحمد بن أبي الجبر وكان ناظراً بالبطيحة لريحان محكويه خادم السلطان لأنها كانت

من جملة أقطاعه وحضر أيضاً المظفر بن حماد بن أبي الجبر ، وبينهما عداوة شديدة فالتقيا عند الانهزام بساباط نهر ملك فقتله المظفر ومضى إلى واسط محتفياً وسار منها إلى البطيحة وتغلب عليها وكاتب دبيساً وأطاعه . وأما دبيس فانه لم يعرض لنهر ملك ولا غيره وأرسل إلى الخليفة أنه على الطاعة ولولا ذلك لأخذ البرسقي وجميع من معه وسال أن يخرج الناظر إلى القرى التي لخاص الخليفة لقبض دخلها . وكانت الوقعة في حزيران وحمى البلد فاحمد الخليفة فعله وترددت الرسل بينهما فاستقرت القاعدة أن يقبض المسترشد باللّه على وزيره جلال الدين أبي علي بن صدقة ليعود إلى الطاعة ، فقبض على الوزير ونهبت داره ودور أصحابه والمنتمين إليه وهرب ابن أخيه جلال الدين أبو الرضا إلى الموصل . ولما سمع السلطان خبر الوقعة قبض على منصور بن صدقة أخي دبيس وولده ورفعهما إلى قلعة برحين وهي تجاور كرج ، ثم إن دبيساً أمر جماعة من أصحابه بالمسير إلى أقطاعهم بواسط فساروا اليها

فمنعهم أتراك واسط ، فجهز دبيس إليهم عسكراً مقدمهم مهلهل بن أبي العسكر وأرسل إلى المظفر بن أبي الجبر بالبطيحة ليتفق مع مهلهل ويساعده على قتال الواسطيين فاتفقا على أن تكون الوقعة تاسع رجب . وأرسل الواسطيون إلى البرسقي يطلبون منه المد فأمدهم بجيش من عنده وعجل مهلهل في عسكر دبيس ولم ينتظر المظفر ظناً منه أنه بمفرده ينال منهم ما أراد وينفرد بالفتح فالتقيِ هو والواسطيون ثامن رجب فانهزم مهلهل وعسكره وظفر الواسطيون وأخذ مهلهل أسيراَ وجماعة من أعيان العسكر ، وقتل ما يزيد على ألف قتيل ولم يقتل من الواسطيين غير رجل واحد . وأما المظفر بن أبي الجبر فإنه أصعد من البطيحة ونهب وأفسد وجرى من أصحابه القبيح فلما قارب واسطاً سمع بالهزيمة فعاد منحدراً . وكان في جملة ما أخذ العسكر الواسطي من مهلهل تذكرة بخط دبيس يأمره لمنهيها بقبض المظفر بن أبي الجبر ومطالبته بأموال كثيرة أخذها من البطيحة فأرسلوا الخط إلى المظفر وقالوا : هذا خط الذي تختاره وقد أسخطت الله تعالى والخلق كلهم لأجله فمال إليهم وصار معهم . فلما جرى على أصحاب دبيس من الواسطيين ما ذكرنا شمر عن ساعده في الشر وبلغه أن السلطان كحل أخاه فجز شعره ولبس السواد ونهب البلاد وأخذ كل ما للخليفة بنهر مالك فأجلى الناس إلى بغداد . وسار عسكر واسط إلى النعمانية فأجلوا عنها عسكر دبيس واستولوا عليها وجرى بينهم هناك وقعة كان الظفر للواسطيين وتقدم الخليفة إلى البرسقي بالتبريز إلى حرب

دبيس فبرز في رمضان وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر قتل السميرمي

وفي هذه السنة قتل الوزير الكمال أبو طالب السميرمي وزير السلطان محمود سلخ صفر وكان قد برز مع السلطان ليسير الى همذان فدخل الحمام وخرج بين يديه الرجالة والخيالة وهو في موكب عظيم فاجتاز بسوق المدرسة التي بناها خمارتكين التتشي ، واجتاز في منفذ ضيق فيه حظائر الشوك فتقدم أصحابه لضيق الموضع فوثب عليه باطني وضربه بسكين فوقعت في البغلة وهرب إلى دجلة وتبعه الغلمان فخلا الموضع فظهر رجل آخر فضربه بسكين في خاصرته وجذبه عن البغلة إلى الأرض وضربه عدة ضربات . وعاد أصحاب الوزير فحمل عليهم رجلان باطنيان فانهزموا منهما ثم عادوا وقد ذبح الوزير مثل الشاة فحمل قتيلاً وبه نيف وثلاثون جراحة وقتل قتالوه . ولما كان

في الحمام كان المنجمون يأخذون له الطالع ليخرج فقالوا : هذا وقت جيد وإن تأخرت يَفُتْ طالع السعد فأسرع وركب وأراد أن يأكل طعاماً فمنعوه لأجل الطالع فقتل ولم ينفعه قولهم ، وكانت وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر وانتهب ماله وأخذ السلطان خزانته ووزر بعده شمس الملك بن نظام الملك وكانت زوجة السميرمي قد خرجت هذا اليوم في موكب كبير معها نحو مائة جارية وجمع من الخدم والجميع بمراكب الذهب فلما سمعن بقتله عدن حافيات حاسرات وقد تبدلن بالعز هواناً وبالمسرة أحزاناً فسبحان من لا يزول ملكه . وكان السميرمي ظالماً كثير المصادرة للناس سيء السيرة فلما قتل أطلق السلطان ما كان جدده من المكوس وما مضعه على التجار والباعة .

ذكر القبض على ابن صدقة وزير الخليفة ونيابة علي بن طراد

في جمادى الأولى قبض الخليفة على وزيره جلال الدين بن صدقة وقد تقدم ذكره قبل – وأقيم نقيب النقباء شرف الدين علي بن طراد الزينبي في نيابة الوزارة فأرسل السلطان إلى المسترشد باللّه في معنى وزارة نظام الملك وكان أخا شمس الملك عثَمان بن نظام الملك وزير السلطان محمود فأجيب إلى ذلك ، واستوزر في شعبان وكان قد وزر للسلطان محمد سنة خمسمائة ثم عزل ولزم داراً استجدها ببغداد إلى الآن ، فلما خلع على نظام الملك وجلس في الديوان طلب أن يخرج ابن صدقة ذلك طلب من الخليفة أن يسير إلى حديثة عانة ليكون عند الأمير سليمان بن مهارش فأجيب إلى ما طلب . وسار إلى الحديثة فخرج عليه في الطريق إنسان من مفسدي التركمان يقال له :

يونس الحرامي فأسره ونهب أصحابه فخاف الوزير أن يعلم دبيس فأرسل إلى يونس وبذل له مالًا يأخذه منه للعداوة التي بينهما فقرر أمره مع يونس على ألف دينار يعجل منها ثلاثمائة ويؤخر الباقي إلى أن يرسله من الحديثة. وراسل عامل بلد الفرات في تخليصه وإنفاذ من يضمن الباقي الذي عليه فأعمل العامل الحيلة في ذلك فأحضر إنساناً فلاحاً وألبسه ثياباً فاخرة وطيلساناً وأركبه وسير معه غلماناً وأمره أن يمضي إلى يونس ويدعي أنه قاضي بلد الفرات ويضمن الوزير منه بما بقي من المال فسار السوادي إلى يونس فلما حصر عن الوزير ويونس احترماه وضمن السوادي الوزير منه وقال له : أقيم عندك إلى أن يصل المال مع صاحب لك تنفذه مع الوزير ،

فاعتقد يونس صدق ذلك وأطلق الوزير ومعه جماعة من أصحابه فلما وصل الحديثة قبض على من معه منهم فاطلق يونس ذلك السوادي والمال الذي أخذه حتى أطلق الوزير أصحابه ، وعلم الحيلة التي تمت عليه . ولما سار الوزير من عند يونس لقي أنساناً أنكره فأخذه فرأى معه كتاباً من دبيس إلى يونس يبذل ستة آلاف دينار ليسلم الوزير إليه وكان خلاصه من أعجب الأشياء .

ذكر قتل جيوش بك

في هذه السنة قتل الأمير جيوش بك الذي كان صاحب الموصل وقد ذكرنا خروجه على السلطان محمود وعوده إلى خدمته فلما رضي عنه أقطعه أذربيجان وجعله مقدم عسكره فجرى بينه وبين جماعة من الأمراء منافرة ومنازعات فأغروا به السلطان فقتله في رمضان على باب تبريز . وكان تركياً من مماليك السلطان محمد عادلاً حسن السيرة ، ولما ولي الموصل والجزيرة كان الأكراد بتلك الأعمال قد انتشروا وكثر فسادهم وكثرت قلاعهم والناس معهم في ضيق والطريق خائفة فقصدهم وحصر قلاعهم وفتح كثيراً منها ببلد الهكارية وبلد الزوزان وبلد البشنوية ، وخافه الأكراد وتولى قصدهم بنفسه فهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق وأمنت الطرق وانتشر الناس واطمأنوا وبقي الأكراد لا يجسرون أن يحملوا السلاح لهيبته .

ذكر وفاة أيلغازي وأحوال حلب بعده

في هذه السنة في شهر رمضان توفي أيلغازي بن أرتق بميافارقين وملك ابنه حسام الدين تمرتاش قلعة ماردين وملك ابنه سليمان ميافارقين وكان بحلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان

بن عبد الجبار بن أرتق فبقي بها إلى أن أخذها ابن عمه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أقطع السلطان محمود الأمير آقسنقر البرسقي مدينة واسط وأعمالها مضافاً إلى ولاية الموصل وغيرها مما بيده وشحنكية العراق . فلما أقطعها البرسقي سير إليها عماد الدين زنكي بن آقسنقر الذي كان والده صاحب حلب وأمره بحمايتها فسار إليها في شعبان ووليها وقد ذكرنا أخبار زنكي في كتاب الباهر في ذكر ملكه وملك أولاده الذين هم ملوكنا الآن فينظر منه .

وفيها ظهر معدن نحاس بديار بكر قريبا من قلعة ذي القرنين

.

وفيها زاد الفرات زيادة عظيمة لم يعهد مثلها فدخل الماء إلى ربض قلعة جعبر وكان الفرات حينئذ بالقرب منها فغرق أكثر دوره ومساكنه وحمل فرساً من الربض وألقاه من فوق السور إلى الفرات وفيها بنيت مدرسة بحلب لأصحاب الشافعي . وفيها توفيت ابنة السلطان سنجر زوج السلطان محمود. وفيها في شعبان قدم إلى بغداد البرهان أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي وعقد مجلس الوعظ في جميع المواضع وورد–بعده أبو القاسم علي بن يعلى العلوي ، ونزل رباط شيخ الشيوخ فوعظ في جامع القصر والتاجية ورباط سعادة وصار له قبول عند الحنابلة وحصل له مال كثير لأنه أظهر موافقتهم . وورد بعده أبو الفتوح الاسفرايني ونزل برباط شيخ الشيوخ أيضاً ووعظ في هذه المواضع وفي النظامية وأظهر مذهب الأشعري فصار له قبول كثير عند الشافعية وحضر مجلسه الخليفة المسترشد بالله وسلم إليه رباط الأرجوانية والدة المقتدي بالله بدرب زاخي .

وفيها توفي عبد اللّه بن أحمد بن عمر أبو محمد السمرقندي أخو أبي القاسم بن السمرقندي ومولده بدمشق سنة أربع وأربعين وأربعمائة ونشا ببغداد وسمع الصريفيني وابن النقور وغيرهما وسافر الكثير وكان حافظاً للحديث عالماً به . وفي في ذي الحجة توفي عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف أبو طالب ومولده سنة ست وثلاثين وأربعمائة وسمع

البرمكي والجوهري والعشاري وكان ثقة حافظاً للحديث .

ثم دخلت سنة سبع عشرة وخمسمائة
ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دبيس

في هذه السنة كان الحرب بين الخليفة المسترشد باللهّ وبين دبيس بن صدقة .

وكان سبب ذلك أن دبيساً أطلق عفيفاً خادم الخليفة وكان مأسوراً عنده وحمله رسالة فيها تهديد للخليفة بإرسال البرسقي إلى قتاله وتقويته بالمال . وأن السلطان كحل أخاه وبالغ في الوعد ولبس السواد وجزَّ شعره وحلف لينهبن بغداد ويخربها ، فاغتاظ الخليفة لهذه الرسالة وغضب وتقدم إلى البرسقي بالتبريز إلى سرب دبيس فبرز في رمضان سنة ست عشرة وتجهز الخليفة وبرز من بغداد . واستدعى العساكر فأتاه سليمان بن مهارش صاحب الحديثة في عقيل ، وأتاه قرواش بن مسلم وغيره ما . وأرسل دبيس إلى نهر ملك فنهب وعمل أصحابه كل عظيم من الفساد فوصل أهله إلى بغداد فأمر الخليفة فنودي ببغداد لا يتخلف من الأجناد أحد ومن أحب الجندية من العامة فليحضر فجاء خلق كثير ففرق فيهم الأموال والسلاح ، فلما علم دبيس الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضا عنه فلم يجب إلى ذلك وأخرجت خيام الخليفة في العشرين من ذي الحجة من سنة ست عشرة فنادى أهل بغداد النفيرَ النفير الغزاةَ الغزاةَ ، وكثر الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة ، وبرز الخليفة رابع عشرة ذي الحجة وعبر دجلة وعليه قباء وعمامة سوداء وطرحة وعلى كتفه البردة وفي لده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني ، ونزل الخيام ومعه وزير نظام الدين أحمد بن نظام

الملك ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طراد وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم من الأعيان . وكان البرسقي قد نزل بقرية جِهار طاق ومعه عسكره فلما بلغهم خروج الخليفة عن بغداد عادوا إلى خدمته . فلما رأوا الشمسة ترجلوا بأجمعهم وقبلوا الأرض بالبعد منه .

ودخلت هذه السنة فنزل الخليفة مستهل المحرم بالحديثة بنهر الملك واستدعى البرسقي والأمراء واستحلفهم على المناصحة في الحرب ، ثم ساروا إلى النيل ونزلوا بالمباركة وعبي البرسقي أصحابه ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصته وجعل دبيس أصحابه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً وجعل الرجالة بين يدي الخيالة بالسلاح وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي النساء فلما تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف والمخانيث بالملاهي ، ولم يُرَ في عسكر الخليفة غير قارىء ومسبح وداع فقامت الحرب على ساق . وكان مع أعلام الخليفة الأمير كرباوي بن خراسان . وفي الساقة سليمان بن مهارش . وفي ميمنة عسكر البرسقي الأمير أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البكجية فحمل عنتر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي فتراجعت على أعقابها وقتل ابن أخ للأمير أبي بكر البكجي وعاد عنتر وحمل حملة ثانية على هذه المينة فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأول ، فلما رأى عسكر واسط ذلك ومقدمهم الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر حمل وهم معه على عنتر ومن معه وأتوهم من ظهورهم فبقى عنتر في الوسط وعماد الدين وعسكر واسط من ورائه والأمراء البكجية بين يديه فاسر عنتر وأسر معه بريك بن زائدة وجميع من معهما ولم يفلت أحد . وكان البرسقي واقفاً على نشز من الأرض وكان الأمير آق بوري في الكمين في خمسمائة فارس فلما اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دبيس

فانهزموا جميعهم وألقوا نفوسهم في الماء فغرق كثير منهم وقتل كثير . ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب جرد سيفه وكبر وتقدم إلى الحرب فلما انهزمٍ عسكر دبيس وحملت الأسرى إلى بين يديه أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبرا . وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل وعسكر البرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً وحصل نساء دبيس وسراريه تحت الأسرى سوى بنت أيلغازي وبنت عميد الدولة بن جهير ، فإنه كان تركهما في المشهد.

وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة ولما عاد الخليفة إلى بغداد ثار العامة بها ونهبوا مشهد باب التبن وقعلوا أبوابه فأنكر الخليفة ذلك وأمر نظر أمير الحاج بالركوب الى المشهد وتأديب من فعل ذلك ، وأخذ ما نهب ففعل وأعاد البعض

وخفي الباقي عليه. وأما دبيس بن صدقة فإنه لما انهزم نجا بفرسه وسلاحه وأدركته الخيل ففاتها وعبر الفرات فرأته امرأة عجوز وقد عبر فقالت له : دبير جئت فقال : دبير من لم يجىء . واختفى خبره بعد ذلك وأرجف عليه بالقتل ثم ظهر أمره أنه قصد غزية من عرب نجد فطلب منهم أن يحالفوه فامتنعوا عليه وقالوا : إنا نسخط الخليفة والسلطان ، فرحل إِلى المنتفق واتفق معهم على قصد البصرة وأخذها فساروا إليها ودخلوها ونهبوا أهلها وقتل الأمير سخت كمان مقدم عسكرها وأجلى أهلها فأرسل الخليفة إلى البرسقي يعاتبه على إهماله أمر دبيس حتى تم له من أمر البصرة ما أخربها فتجهز البرسقي للانحدار إليه فسمع دبيس ذلك ففارق البصرة وسار على البر إلى قلعة جعبر والتحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم في أخذها فلم يظفروا بها فعادوا عنها . ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد فأقام معه وحسن له قصد العراق وسنذكره سنة تسع وعشرين إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب

فيِ هذه السنة في صفر ملك الفرنج حصن الأثارب من أعمال حلب وسبب ذلك أنهم كانوا قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق وكان بحلب حينئذ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق وهو صاحبها ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم فهادنهم على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده ، فأجابوه إلى ذلك وتسلموا الحصن وتمت الهدنة بينهم واستقام أمر الرعية

بأعمال حلب وجلبت إليهم الأقوات وغيرها ، ولم تزل الأثارب بأيدي الفرنج إلى أن ملكها أتابك زنكي بن آقسنقر على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك بلك حران وحلب

في هذه السنة في ربيع الأول ملك بلك بن بهرام مدينة حران وكان حصرها فلما ملكها سار منها إلى مدينة حلب وسبب مسيره إليها أنه بلغه أن صاحبها بدر الدولة قد سلم قلعة الأثارب الى الفرنج فعظم ذلك عليه وعلم عجزه من حفظ بلاده فقوي طمعه في ملكها فسار إليها ونازلها في ربيع الأول وضايقها ومنع الميرة عنها وأحرق زروعها فسلم إليه ابن عمه البلد والقلعة بالأمان غرة جُمادى الأولى من السنة وتزوج ابنه الملك رضوان وبقي مالكاً لها إلى أن قتل على ما نذكره .

ذكر الحرب بين الفرنج والمسلمين بإفريقية

قد ذكرنا أن الأمير علي بن يحيى صاحب إفريقية لما استوحش من رجال صاحب صقلية جدد الأسطول الذي له وكثر عدده وعدده وكاتب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش بالاجتماع معه على قصد جزيرة صقلية فلما علم رجار ذلك كف عن بعض ما كان يفعله فاتفق أن علياً مات سنة خمس عشرة وولي ابنه الحسن –وقد ذكرناه – فلما خلت سنة ست سيَّر أمير المسلمين أسطولًا ففتحوا نقوطرة بساحل بلاد قِلّوْرِيَة فلم يشك رجار أن علياً كان سبب ذلك فجد في تعمير الشواني والمراكب وحشد فأكثر ومنع من السفر إلى إفريقية وغيرها من بلاد –الغرب ، فاجتمع له من ذلك ما لم يعهد مثله قبل كان ثلاثمائة قطعة فلما انقطعت الطريق عن إفريقية توقع الأمير الحسن بن علي خروج العدو إلى المهدية ، فأمر باتخاذ العدد وتجديد الأسوار وجمع المقاتلة فاتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع فلما كان في جمادى الآخرة سنة سبع عشرة سار الأسطول الفرنجي في ثلاثمائة قطعة ، فيها ألف فارس وفرس واحد . إلا أنهم لما ساروا من مرسى علي فرقتهم الريح وغرق منهم مراكب كثيرة ونازل من سلم منهم جزيرة قوصرة ففتحها وقتل من بها وسبى وغنموا وساروا عنها فوصلوا إلى إفريقية ونازلوا الحصن المعروف بالديماس أواخر جمادى الأولى فقاتلهم طائفة من العرب كانوا هناك ، والديماس حصن منيع في وسطه حصن آخر وهو مشرف على البحر . وسيّر الحسن من عنده من الجموع إلى الفرنج وأقام

هو بالمهدية في جمع آخر يحفظها وأخذ الفرنج حصن الديماس وجنود المسلمين محيطة بهم ، فلما كان بعد كل ليال اشتد القتال على الحصن الداخل فلما كان الليل صاح المسلمون صيحة عزيمة ارتجت لها الأرض وكبروا فوقع الرعب في قلوب الفرنج فلم يشكوا أن المسلمين يهجمون عليهم ، فبادروا إلى شوانيهم وقتلوا بأيديهم كثيرا من خيولهم وغنم المسلمون منها أربعمائة فرس ولم يسلم معهم غير فرس واحد . وغنم المسلمون جميع ما تخلف عن الفرنج وقتلوا كل من عجز عن الطلوع إلى المراكب . فلما صعد الفرنج إلى مراكبهم أقاموا بها ثمانية أيام لا يقدرون على النزول إلى الأرض فلما أيسوا من خلاص أصحابهم الذين في الديماس ساروا والمسلمون يكبرون عليهم ويصيحون بهم ، وأقامت عساكر المسلمين على حصن الديماس في أمم لا يحصون كثرة فحصروه فلم يمكنهم فتحه لحصانته وقوته فلما عدم الماء على من به من الفرنج وضجروا من مواصلة

القتال ليلاً ونهاراً ففتحوا باب الحصن وخرجوا فقتلوا عن آخرهم وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة إقامتهم في الحصن ستة عشر يوماً ؛ ولما رجع الفرنج مقهورين أرسل الأمير الحسن البشرى إلى سائر البلاد وقال الشعراء في هذه الحادثة فاكثروا وتركنا ذلك خوف التطويل .

ذكر استيلاء الفرنج على خرتبرت وأخذها منهم

في هذه السنة في ربيع الأول استولى الفرنج على خرتبرت من بلاد ديار بكر. وسبب ذلك أن بلك بن بهرام بن أرتق كان صاحب خرتبرت فحصر قلعة كركر وهي تقارب خرتبرت فسمع الفرنج بالشام الخبر فسار بغدوين ملك الفرنج في جموعه إليه ليرحله عنها خوفاً أين يقوى بمُلكِهَا قلما سمع بلك بقربه منه رحل إليه والتقيا في صفر واقتتلا فانهزم الفرنج وأسر ملكهم ومعه جماعة من أعيان فرسانهم وسجنهم بقلعة خرتبرت. وكان بالقلعة أيضاً جوسلين صاحب الرها وغيره من مقدمي الفرنج كان قد أسرهم سنة خمس عشرة وسار بلك عن خرتبرت إلى حراز في ربيع الأول فملكها فاعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجند فظهروا وملكوا القلعة . فأما الملك بغدوين فانه اتخذ الليل جملاً ومضى إلى بلاده واتصل الخبر ببلك صاحبها فعاد في عساكره إِليها وحصرها وضيق على من بالقلعة واستعادها من الفرنج وجعل فيها من الجند من يحفظها وعاد عنها .

ذكر قتل وزير السلطان وعود ابن صدقة إلى وزارة الخليفة

في هذه السنة قبض السلطان محمود على وزيره شمس الملك عثمان بن نظام الملك وقتله . وسبب ذلك أنه لما أشار على السلطان بالعود عن حرب الكرج وخالفه ، وكانت الخيرة في مخالفته تغيَّر عليه وذكره أعداؤه عنده بسوء ونهبوا على تهوره وقلة تحصيله ومعرفته بمصالح الدولة فقد رأى السلطان فيه ثم إن الشهاب أبا المحاسن وزير السلطان سنجر كان قد توفي وهو ابن أخي نظام الملك وزر بعده أبو طاهر القمي وهو عدو للبيت النظامي فسعى مع السلطان سنجر حتى أرسل إِلى السلطان محمود يأمره بالقبض على وزيره شمس الملك ، فصادف وصول الرسول وهو متغير عليه فقبض عليه وسلمه إلى طغابرك فبعثه إِلى بلده خلخال فحبسه فيها ثم إن أبا نصر المستوفي الملقب